ســـــارة

سـارة

روايـة

إبـراهيـم السمـري

ســـــارة

روايـــــة

اسم الكاتب: إبراهيم السمري
تدقيق لغوي: فريق المكتبة العربية
تصميم الغلاف: محمد سعد الشحات
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولى
رقم الإيداع: ١٦٥٨٣ / ٢٠١٨
طبعت بمطبعة الشروق

حقوق التوزيع

Facebook.com/arabiclibrary2017

إهـــداء

إلى كل إنسان يسعى لترسيخ القيم النبيلة والأخلاق السامية في مجتمعاتنا..

إلى أصحاب المكارم وأهل المعروف في كل زمان ومكان أهدي هذه الرواية، راجياً أن تكون خطوة لعودة القيم الأصيلة لشعوبنا العربية والإسلامية...!

المؤلف

إبراهيم السمري

(١)

قبيل الغروب وقبل أن تستعد الشمس للرحيل تعوّد أن يمشي بين الحقول وبين الحدائق المنتشرة على أطراف قريته، وعلى شاطئ الترعة الممتدة مع حدود القرية من الجهة الغربية، هذه الترعة التي شهدت أجمل أيامه الماضية.

تعوّد "صلاح" منذ كان طالبًا في المرحلة الإعدادية أن يخرج في مثل هذا الوقت من النهار ليذاكر دروسه وهو يسير في أحضان الطبيعة الجميلة، أما الآن فقد أصبح شاباً في الرابعة والثلاثين من عمره، فارع الطول، معتدل القامة كالرمح، ذو عينين عسليَّتين واسعتين، خمري اللون، ذو جبهة عريضة، ووجه مشرقٍ، دائم الابتسام، يمتلئ شبابًا وحيوية.

ويمتاز بقدرة عجيبة في الحديث تجذب إليه قلوب وأسماع من يتحدث إليهم، هادئًا رزينًا يمشي ،كأنه حمل هموم الكون على كتفيه، فتحسبه في هدوئه ورزانته أكبر من عمره الحقيقي، أما إذا رأيته مبتسماً أو ضاحكاً فتظنه أصغر سنًّا مما هو عليه .

يعمل مدرسًا في كلية الزراعة بعد أن حصل على درجة الدكتوراه، لكنّ حلمه لم يتوقف عند هذه الوظيفة؛ فلديه طموحات وآمال كبيرة، وفي رأسه أفكار عظيمة تنتظر الفرصة للتنفيذ.

جذب انتباهه . وهو يسير . أمر غير عادي، لم يعد يرى منظر المياه الصافية في الترعة التي كان يتمتع بصفائها من قبل، لقد أصبحت والطريق الذي يسير عليه سواء، فصفحة الماء يغطيها نبات متسلِّق معروف بورد النيل، وأكوام من الأكياس البلاستيكية الممتلئة بالنفايات والمهملات،

وأعواد من الحطب والقش، وزجاجات فارغة، وجثث من الحيوانات الميتة، وأشياء كثيرة تشمئز منها النفوس، وتنفر منها العيون.

يقول لنفسه: . ايه اللي حصل يا جدعان .. ؟! فين الطبيعة والمناظر الجميلة اللي كنت متعوّد أشوفها لما كنت أخرج للمذاكرة ؟! راحت فين الميّة الصافية اللي كنّا بنستحمَّ فيها، واللي كان بيشرب منها آباءنا وجدودنا؟! أنا مش شايف قدامي غير مناظر وحشة وكريهة، يا خسارة الريف اللي كان الشعراء بيتغنوا بجماله، فين محمود حسن سماعيل وصالح الهمشري ومحمود غنيم ومحمد طاهر الجبلاوي، والله اشتقت لشعرهم وللريف الجميل بتاعهم ..!!

يا خسارة يا ولاد.. اتغيّرت صورة الريف، واتحوّلت دوره البسيطة المتواضعة لأبراج عالية، واتبدل الهدوء المريح للأعصاب لأصوات عالية ودوشة تثير الأعصاب، بعد ما انتشرت في البلد الورش والمصانع الصغيرة، والهوا النضيف صبح مشبّع بالتلوث، دخان عربيات ومصانع زي المدينة بالضبط، والقلوب اللي كانت مليانة بالخير والحب بقت مليانة حقد وكره وأنانية.

كان الدكتور "صلاح" يعمل مهندسًا زراعيًا في جمعية القرية قبل أن يغادرها منذ عشرة أعوام، لكنه ترك القرية في ظروف غامضة، اعتقد البعض بأنه سافر خارج البلاد، وقال البعض بأنه كان يسكن في المدينة بالقرب من الجامعة التي أراد أن يستكمل فيها مشواره العلمي، فحصل خلال هذه المدة على درجة الماجستير، وعلى درجة الدكتوراه في مجال تخصصه، وعمل بعد ذلك بالجامعة.

وهو الآن يعود إلى قريته بعد أن فتح الله عليه، وأصبحت أحواله المادية ميسرة بعض الشيء، فاشترى قطعة أرض، وبنى عليها بيتاً جميلاً بحديقة صغيرة، أبدع في تصميمها، وغرس فيها ألوانًا مختلفة من الأشجار والزهور لتكون جنته الدنيوية التي يلجأ إليها بعد عمله الشاق، أو تكون خلوته التي يخلو فيها إلى نفسه وإلى أسرته الصغيرة المكونة من شقيقته الأرملة "سناء" التي لم تكمل تعليمها الجامعي بسبب الزواج، وقد توفي عنها زوجها وهي لم تزل شابة صغيرة في السن، ولم تنجب أطفالًا من زوجها المتوفى، هذه الأخت أكبر من شقيقها "صلاح" بعشر سنوات، كانت هي الأخرى قد غادرت القرية مع أخيها، وفجأة يعودان إلى القرية ومعهما فتاة جميلة لا تتجاوز الأربعة عشر ربيعًا .

وكثيراً ما تساءل الناس في القرية :

. يا ترى مين البنت الحلوة اللي مع الدكتور صلاح؟!.. يمكن تكون بنته؟!.. طيب إذا كانت بنته يا ترى فين أمها؟!.. لا..لا.. مش ممكن تكون بنته لأنه لما ساب البلد من عشر سنين ما كانش متجوز، يمكن تكون بنت أخته؟!.. ودي كمان مش مقنعة لأن أخته لما جوزها مات ما كانش معاها عيال، ولا كانت حامل، يا ترى البنت دي بنت مين؟! يمكن يكون اتبنّاها من الملجأ؟!..ولا تكون بنت حد من أصحابه ولا زملاته مات صغيّروكان بيعزّعليه؟!

كل هذه الأسئلة .وغيرها كثير.كانت تدور على ألسنة أهل القرية كلما رأوا صلاح و ابنته معه.

بعد الجولة التي قام بها صلاح عاد إلى بيته حزينًا، فسألته شقيقته وهي تبتسم ابتسامة هادئة :

. ما لك يا دكتور "صلاح" ؟! ايه اللي مغيّرك ؟..حد زعّلك..؟!

حاول أن يرسم على شفتيه ابتسامة مصطنعة، وقال في هدوء:

.أبدًا مفيش حاجة يا "سناء" .. أنا كويس .

ألحَّت سناء، وكررت السؤال عليه وهي تحاول أن تقرأ ما في عينيه، لكنه هرب من عينيها اللتين تشبهان عيني أمها الثاقبتين اللتين كانت تستكشف بهما ما يخبئه في صدره، لم يستطع أن يخفي عن أخته همه وحزنه، فانهار أمامها قائلاً:

.الظاهر إني رجعت البلد متأخّر قوي يا سناء؟

قالت سناء وعلى وجهها ارتسمت علامات الدهشة والقلق:

.إزّاي يعني؟

أجاب بنبرة حزينة:

.كل شيء ضاع، كل حاجة حلوة وجميلة انتهت.

ردّت سناء، ولازال القلق يسيطر عليها:

.ايه اللي ضاع يا دكتور ؟ أنا مش فاهمة حاجة خالص..!!

. لمّا تركنا البلد ورحنا المدينة كنت خايف على سارة من طباع أهل المدينة وأخلاقهم وعلشان كده عملت حواليها سور من الأخلاق يحميها من جرأة أولاد المدن، حفّظتها القرآن وعلمتها حاجات كتير من الأخلاق اللي اتربّينا عليها في البلد زي الحشمة والوقار والحياء واحترام الكبير والعطف على الصغير وحب الخير لكل الناس، وكنت بعرّفها إن العادات دي من أساسيات دينّا وتقاليد مجتمعنا، واللي يحافظ عليها يدخل الجنة اللي ربنا أعدّها له في الآخرة، ولما كانت تسألني عن الجنة شكلها ايه؟.. كنت بوصف لها بلدنا، وكنت دايمًا أوعدها بزيارة لبلدنا الحلوة اللي نشأت فيها، واللي كانت في نظري تشبه الجنة، بجمال مناظرها وطيبة أهلها.

واللي شوفته النهارده في البلد خلاني خجلان من نفسي وحسّسني إني خدعت سارة وكدبت عليها... كل حاجة اتغيّرت عن زمان، مش عارف أقول لها إيه لو طلبت تشوف البلد اللي زيّنتهالها وخليتها تعيش أحلام جميلة عنها؟!

قالت سناء وقد ذهب عنها قلقها ودهشتها:

. اهدا يا دكتور صلاح، الموضوع ما يستاهلش كل الرعب والخوف والحزن اللي انت شايله في قلبك، انت طالع علشان تغيّر جوّ وتهدِّي أعصابك ترجع لنا بالشكل دا ؟!

.كل حاجة اتغيّرت يا سناء ..!!

. وايه الغريب في كدا؟ كل حاجة بتتغيّر يا صلاح يا خويا..!! مافيش حاجة بتفضل على حالها، هي دي سنة الحياة، ركّز كدا وسيبك من الوهم اللي في دماغك ده، انت فاكر لما رحت معاك نخطب لك واحدة من البلد اللي انت شايفها جنة ربنا في أرضه، بنت عمك مصيلحي؟!!

. أيوه فاكر .. أنا رفضت البنت دي لأن مبادئها مختلفة عن مبادئي ونظرتها للحياة مختلفة عن نظرتي.

. طيب .. والثانية..؟ والثالثة..؟ كلهم فكّروا إنك جاي من عالم تاني وإنك من زمن غير زمانهم.

ردّ صلاح في انفعال مكتوم:

. تقصدي ايه يا سناء بكلامك ده؟ وليه بتفكريني بالماضي؟! أنا رميته ورا ضهري خلاص.

. أبداً يا أخويا ..كل اللي عاوزه أقوله إن الزمن بيتغيّر وكل حاجة حوالينا بتتغير، ولولا التغيير ما وصلنا القمر ولا المريخ ولا أي كوكب من الكواكب التانية .

. فيه فرق يا سناء بين التطوير والتغيير اللي انت تقصديه التطوير، واللي أنا أقصده التغيير بمعنى إن الواحد يغير جلده وينسلخ من أصله ويتخلّى عن قيمه ومبادئه، المبادئ والقيم لا تتغير ولا تتجزّأ ، ثابتة من أيام أبونا آدم لحد النهارده، أما الإنسان اللي ينسلخ من مبادئه بحجة التطور بيكون شبيه بالحيوان أو الجماد.

. أنا ما افهمش حاجة من كلامك الكبير ده، كل اللي أعرفه إن الشخص الطبيعي لازم يساير عصره ، ويعيش زمانه.

. لاحظي يا سناء إن كلامك جارح، يعني أنا مش طبيعي؟ على كل حال شكراً يا ستي..

. لا يا دكتور .. والله ما قصدت كدا، لكنك بتاخد الأمور بحساسية زايدة شوية، نفسي يكون صدرك واسع لكل المشاكل اللي بتقابلك.

قالت سناء هذه النصيحة وهي تعلم علم اليقين أن أخاها صلاح رجل حليم وصبور وقادر على حل أي مشكلة تواجهه دون عصبية، وبينما هما يتحاوران ويتناقشان إذ دخلت عليهما "سارة" الفتاة الجميلة الرشيقة ذات الوجه الملائكي المشرق، والملامح العذبة، تبدو في ثيابها الفضفاضة، وحجابها الأنيق، ووجهها المتلألئ بالنور، وابتسامتها الصافية الناعمة، وعينيها السوداوين الواسعتين كأنهما عيني غزالة وديعة، تبدو في هذا كله حورية قد خرجت عليهما من رياض الجنة.

أشرق وجهه، ونسي كل همومه، وهبَّ واقفاً يستقبلها في خشوع، ولمعت عيناه لرؤيتها، وانفرجت شفتاه عن ابتسامة صافية، وقال في بشر وترحاب:

. سارة .. تعالي يا حبيبتي، كنت بتعملي ايه؟

. كنت بقرأ في (الشوقيات) لأمير الشعراء "أحمد شوقي" .

. ما شاء الله .. انت بنت أبوك بصحيح، تعرفي إن الشعر بينمّي الإحساس، ويهذب النفس، ويسمو بالذوق؟! بس لو كان بيدعو لفضيلة من الفضائل.

.لكن مش كل الشعر بيدعو لفضيلة.

. عندك حق يا سارة .. أصحاب الفضيلة دايماً قليلين، وعلشان كده ربنا قال: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ۞ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۞وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ۞ إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ في الآيات دي ربنا ذم الشعراء واستثنى منهم أصحاب الكلام الطيب والدعوة الحسنة، واللي بيدافعوا عن عقيدتهم ومبادئهم الإنسانية.

. الله عليك..كلامك حلو يا بابا، دا الكلمة الواحدة من كلام حضرتك تغنيني عن قراية كتب كتير.

. لا يا بنتي .. في الحقيقة كل واحد فينا له عقل واحد، وله تجاربه الخاصة، ولما تقرأي كتابه تبقي ضفتي عقله لعقلك، وتجاربه لتجاربك ، وكل ما تكترقرايتك تكترتجاربك ويتوسع عقلك.

. ما تخافشي يا بابا .. بنتك بإذن الله مش هتبطّل قراية طول ما هي عايشة.

. ربنا يبارك لي فيكِ يا نور عيوني، بس المطلوب إنك تهتمي بدروسك الأول، وفي وقت فراغك خللي جزء لقرايتك الدينية وجزء لمواهبك وميولك علشان وقتك ما يضيعشي من غير فايدة.

. اطمّن يا والدي، حضرتك عوّدتني على إني أنظّم وقتي، واستفيد من كل دقيقة من حياتي، لكن فيه حاجة حضرتك كنت وعدتني بيها وشكلك نسيتها .

. فكّريني يا سارة .. إيه يا ترى الحاجة اللي أنا ناسيها ؟

. حضرتك وعدّتني إنك تاخدني معاك في فسحة وتفرجني على الأماكن اللي كنت بتذاكر فيها لما كنت قدّي.

أطرق "صلاح" لحظة، وقال في حياء :

. أيوه يا سارة فاكر، لكن مشاغلي وظروف عملي نسيتني اللي وعدتك بيه، وعلى كل حال أنا بجدد العهد تاني معاك وقريب جدا هاخدك انت وعمتك لكل الأماكن اللي كنت باخرج ليها و أتمشى فيها.

. أشكرك يا والدي .. تصبح على خير.

. و أنت يا أجمل زهرة من أهل الخير.

خرجت الفتاة من مكتب والدها تسير في رقة النسيم، وبراءة الأطفال لتدخل حجرتها التي تنام فيها مع عمتها، دون أن تدري أنها قد أخذت معها قلب "صلاح"، وتركته كالطائر المذبوح.

(٢)

ظل صلاح ساهرًا تلك الليلة، شارداً يفكر في أمر القرية، كيف يعيدها إلى ما كانت عليه في الزمن الجميل، كيف يعيد إليها هدوءها، وصفاءها، وجمالها الذي تتميز به عن المدينة، وبعد جهد توصّل إلى حل يرضيه، فلابد أن يقوم بإعداد حملة توعية في القرية، وتكون هذه الحملة نشطة تتنقل من مكان إلى مكان تبدأ في المدارس، وتنتقل إلى المساجد، ثم إلى مركز الشباب، ثم إلى الجمعية الزراعية، ويجب أن تتناول هذه الحملة أضرار التلوث وخطورته على الإنسان والحيوان والنبات، وسبل معالجته، ولابد من إنشاء صندوق للتبرعات الأهلية خاص بالقرية لمواجهة هذا الخطر، ولابد من تكوين فريق عمل متكامل من شباب القرية للنهوض بأعباء العمل من أجل إزالة الأضرار، وتزيين القرية، وإعادة الجمال إلى ضواحيها، إنه مشروع قومي للقرية يشارك فيه كل سكانها كي يتنفسوا هواءً نقياً .

استيقظ من نومه مبكراً والسعادة منتشرة على وجهه؛ لأنه توصل إلى حل تلك المعادلة الصعبة، أو بعبارة أدق كاد أن يكون قد وضع خطة كاملة لمشروعه الصغير الذي سيكون نقطة انطلاق نحو مشاريع أكبر.

فضّل أن يبدأ بعرض مشروعه على عمدة القرية، الرجل الشهم الطيب الذي يحبه أهل القرية؛ لأنه لا يتأخّر عن الواجب، ويبحث دائماً عما فيه مصلحة للقرية، والعمدة رجل في الستينات من عمره لكنه مازال قويًا، رشيق الحركات، يحمل في قلبه حماسة الشباب، وفي عقله حكمة الشيوخ، هادئ الطباع، ضحوك الوجه مشرقه.

نهض صلاح، وجد نفسه مندفعاً نحو بيت العمدة ليستشيره في هذا الأمر، وفي دار الضيافة استقبله الحاج "مصطفى البدري" عمدة القرية استقبالًا حافلًا ، ورحَّب به كل الترحيب، وقبل أن يبدأ "صلاح" في عرض مشروعه، سأله العمدة قائلاً:

. انت كنت فين يا باشمهندس صلاح الفترة دي كلها، والله ليك شوقة كبيرة؟!

.كنت عايش في المدينة يا حاج مصطفى.

.الله ..الله ..في المدينة المنورة ؟!

.يا ريت يا حاج مصطفى ربنا يكتبها لنا .. بس أنا قصدي "القاهرة".

.وكنت بتعمل ايه في القاهرة ؟ هو انت برضه موش مهندس زراعي؟ !

.طبعًا ياحاج مصطفى..

. ومهندس الزراعة بيعمل إيه في القاهرة ؟ هو فيه أراضي زراعية هناك ؟!.. أنا أعرف إنها كلها مباني وكباري وشوارع متسفلته.

ابتسم "صلاح" في هدوء وقال:

. كلامك صحيح يا حاج مصطفى... لكن أنا هناك بدرّس في كلية الزراعة.

هز العمدة رأسه في اطمئنان وقال:

. أيوه .. فهمت يعني أنت اللي بتعلم مهندسين الزراعة اللي بيتوزعوا على الأرياف .. يعني حضرتك دكتور في الزراعة..!!

. عليك نور يا حاج "مصطفى" لكن الألقاب ما تهمنيش المهم المشروع اللي جيت لك علشانه .

. خير إن شاء الله !!

. هو خير لي ولك وللقرية كلها.

. وضّح يا دكتور..

. اسمع يا حاج مصطفى.. أنا عرفت من الفلاحين إن ميّة الريّ بقت قليلة وشحيحة، ولما جيتم تزرعوا الرز السنة دي ما لقتوش مية تكفي وعلشان كدا الفلاحين حرتوا أرض الرز، دا غير البلهاريسيا اللي انتشرت بين الأهالي، وكمان أمراض الكبد، والتيفود، والفشل الكلوي.

. و أنا ايه داخلي في كل دا ؟

. هو مش دخلك لوحدك ولكن دخلنا كلنا؛ لأننا احنا اللي اتسببنا في المشكلة والكوارث دي كلها .

. إزّاي يا دكتور ..؟! المرض ابتلاء من الله، وقلة الميه برضه ابتلاء من الله.

. أيوه صحيح .. كل مصيبة أو كارثة هي ابتلاء من الله؛ لأنها بتحصل بعلمه وقدره سبحانه، لكن ربنا لعن الفساد والمفسدين ووضح لنا في القرآن إن الفساد اللي في الأرض بسبب أعمال الناس، وشوف سبحانه بيقول إيه في قرآنه: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ فالفساد اللي احنا فيه بسبب أعمالنا وتقصيرنا ، شوف الدول المتقدمة مافيهاش الحاجات اللي احنا بنعاني منها؛ لأن كل واحد فيهم بيأدّي دوره المطلوب منه، مفيش كسل ولا تقصير،

ولا واحد يرمي على التاني ويهرب من المسئولية، والأمراض اللي احنا بنعاني منها هي نتيجة إهمالنا وكسلنا وتقصيرنا في حق بلدنا وفي حق نفسنا وربنا قال في كتابه العزيز:﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾، فالموضوع لسه في إيدينا، ونقدر نعالجه.

سكت صلاح ونظر إلى العمدة كأنما ينتظر منه ردًّا، فقال العمدة:

. اتكلم يا دكتور عاوز تقول ايه ؟ شكلك عندك حل لكل مشاكلنا..

. عاوزك تحط إيدك في إيدي يا حاج مصطفى ونخرج للناس نجمعهم ونشجعهم على التعاون والعمل اللي بيه نطهّر بلدنا ونّضّفها من كل الحاجات اللي بتلوثها، مهما كلفنا الأمر من مال أو جهد.

. الموضوع أصعب يا دكتور مما تتخيل.

. لو حطيت إيدك في إيدي وطلع معانا أهل القرية مش هيكون فيه حاجة صعبة ، هنكسّر أي حاجز يقف قدامنا ، أنا بفكري وعلمي، وأنت بنفوذك، والأهالي بتبرعاتهم وجهودهم نحطم الصخر ونعمل المعجزات .

. أنت شاب لسه الحماسة وخداك ، أما أنا ...

. أنت الحكمة اللي بتوجّه الحماسة، وتنور لها الطريق للصحّ.

. صحيح يا ولاد اللي خلف ماماتش كل حاجة فيك بتفكّرني بالمرحوم أبوك كانت البلد بتفوّضه في جلسات الصلح بين العائلات، وكان كلامه موزون ولسانه بينقط سكر وبيأثّر في عقول الناس وقلوبهم ، وفي أي قاعدة صلح الكل يسمع له ومفيش واحد يرد له كلمه ، وانت يا دكتور فكرتني بالماضي بلسانك الحلو اللي بيوصل بسرعة لقلوب الناس.

.دا بعض ما عندكم يا حاج مصطفى.

. بارك الله فيك يا ولدي .. آدي إيدي بمدها لك واللي فيه الخير يقدمه ربنا طالما نيتنا خير، ربنا مش هيكسفنا أبداً.

خرج الدكتور صلاح من بيت العمدة وهو في قمة الفرح، لأنه يكاد يكون قد حصل على موافقة الحكومة، فعمدة القرية هو ممثل الحكومة في القرية، وهو سلطة تنفيذية إن أمر استجيب لأمره، ومشروعه بتلك الموافقة قد اكتسب شرعية فلينطلق إذن إلى الأهالي وليلتق بهم في كل مكان.

عاد من جديد إلى البيت ليضع برنامجًا فعليًّا لمشروعه، وحتى لا يخرج الأمر من يده ويصير هباءً، رأى أن من الحكمة تقسيم المشروع إلى مراحل مرتبطة بجدول زمني ومن هنا لا تتشتت الجهود وتضيع بلا فائدة.

ما إن انتهى الدكتور من إعداد بحثه الشامل حتى انطلق في كل اتجاه يحث الناس على التعاون، بدأ بالمثقفين في القرية ونبههم إلى أهمية دورهم في تنفيذ هذا المشروع، كما التقى بالمعلمين وأئمة المساجد والمسئولين في مركز الشباب وأعضاء الجمعية الزراعية وشرح لهم خطته في معالجة مشكلات القرية، وبالفعل وجد استجابة كبيرة من شباب القرية ومن رجالها ونسائها وأطفالها، وبدأ تنفيذ المرحلة الأولى من المشروع والتي تتمثل في إزالة العوادم المكدَّسة على سطح الماء في الترع وفي الشوارع والطرقات وإلقاء المخلفات والعوادم في مكان مخصص، وكان قد تعاقد مع بعض شركات النظافة لنقل هذه المخلفات إلى أماكن بعيدة ليتم التخلص منها بطريقة علمية متحضرة ، وبعد الانتهاء من المرحلة الأولى بدأت المرحلة الثانية وتتمثل في غرس الأشجار المثمرة في ضواحي القرية وشوارعها ، وأصر على ضرورة أن تكون مثمرة حتى تكون الفائدة أكبر من نواحٍ عديدة : أولًا: ستعطي شكلًا جماليًّا للقرية ،

ثانيًا عندما تزهر هذه الأشجار ستفوح منها روائح جميلة تعطر القرية، ثالثًا: ستوفر الفاكهة لمن لا يستطيع شراء الفاكهة في القرية، رابعًا: ستقوي روابط وعلاقات الأخوة بين أبناء القرية عندما يشعرون بأنهم شركاء في هذا المال العام، وسيكون كل واحد حريصاً على المحافظة عليه، خامسًا: ستمنح الظل لأهالي القرية في فصل الصيف، وتزيد نسبة الأكسجين في الهواء.

تحولت القرية إلى خلية نحل، الكل يعمل في سرور وحب وتعاون، لا فرق بين غني وفقير، لا فرق بين قوي وضعيف، أو بين صغير وكبير، ما هذه الطاقة البشرية الجميلة، أين كانت قبل اليوم ؟!

لقد كانت معطّلة، كان أصحابها ينتظرون من يوقظهم من غفلتهم ويوحدهم، ويؤلف بين قلوبهم، ويحثهم على العمل التعاوني، ترى الأطفال يسابقون الشباب، والشباب يسابقون الشيوخ، ويعملون بدأب وسعادة ليس لها نظير، الكل يساهم بالتبرعات المادية، والجهود البدنية، وصلاح لا يكلّ ولا يملّ يتابع هؤلاء الشباب ويعمل معهم، وتراه في الليل واقفًا في معمله يدرس النبات الغريب الذي هجم على القرية كالوباء هذا النبات الذي أصبح يغطي كل صفحات المياه في كل القرى المصرية، إن جذر النبتة الواحدة يمتص في اليوم الواحد مقدار لتر من المياه، أراد صلاح أن يكتشف مبيداً للقضاء على هذا النبات نهائيًّا.

ظل يعمل ويعمل ويبحث هنا وهناك ويجري تجاربه في معمله الخاص، وعرض الموضوع على زملائه في الكلية، واستجاب له بعض الأساتذة وتحمسوا لفكرته، وأعانوه ببعض المراجع والمصادر التي تكشف له كل أسرار هذا النبات حتى كانت المفاجأة..!!

لقد توصل بالفعل إلى العلاج الذي كان يحلم به بعد كد وتعب وجهد متواصل مدة ستة أشهر، لقد ابتكر مبيدًا كمبيد الحشائش يلتهم هذا النبات التهامًا ويصل إلى نواة الجذر فيحرقها حرقًا فلا تنبت من جديد.

بدأ تجربته في قناة صغيرة تتفرع من الترعة الرئيسية، و يا لها من فرحة عارمة غمرته وغمرت كل رجال القرية عندما وجدوا المبيد يزحف على هذا النبات يلتهمه التهامًا حتى أتى على كل النبات الموجود في القناة، وفي اليوم التالي جاءت (الكرّاكة) لتنظف القناة من آثار هذا النبات، وكانت سعادة صلاح لا تقدر بثمن عندما رأى صفحة الماء في القناة صافية رقراقة كما كان يراها في طفولته.

نادى "صلاح" على الفلاحين وقال لهم والفرحة تملأ عينيه :

. من اليوم يا رجّالة مش هيهبط منسوب المياه في بلدنا مرة تانية، إحنا خلاص قضينا على الوحش اللي كان بيشرب مَيّة الترعة ويلوثها، ويستولى على قوتكم.

تهلّلَت وجوه الفلاحين فرحًا، وقال أحدهم :

. بارك الله لنا فيك يا دكتور "صلاح"، حقيقي العلم نور، كنا بنّضّف القناية كل يوم من ورد النيل علشان نقدر نسقي الزرع ولما نصبح نلاقيه اتمدد تاني وغطى القناية يا دوب سواد الليل.

. إن شاء الله مش هيحصل حاجة تاني والإنجاز اللي اتعمل هنا دا بفضل الله سبحانه وتعالى ثم بفضل جهودكم وتعبكم معايا.

قال آخر:

. خلاص احنا مستعدين نروح معاك للترعة ونقضي على النبات اللي عامل زي الوحش ده.

ابتسم "صلاح" في هدوء ، وقال :

. الأمر مش بالسهولة اللي انت متصورها .. الأمر أكبر مني ومنك ومن جهود القرية كلها، لإن تركيبة المبيد غالية جدًا،دا من ناحية، ومن ناحية تانية احنا ما نقدرش نسيطر على الترعة لأنها كبيرة وطويلة وجايه من مسافات بعيدة وبتعدي على بلاد زي بلدنا ، الموضوع كبير محتاج جهود الدولة كلها.

قال العمدة :

. و إيه الحل يا دكتور ؟

. الحل يا حاج مصطفى، إني آخد بحثي واختراعي وأروح للمركز القومي للبحوث، وأعرض عليهم الأمر وأطلب منهم إن يرفعوه للوزارة علشان يكون مشروع قومي يخدم الدولة كلها .

. ولو الوزارة ما و افقتش..هيكون إيه العمل؟!

. هتكون هناك حلول تانية تعتمد على جهودنا الذاتية.

. و ايه هي الحلول دي؟!

. يا حضرة العمدة سيبها لله، كل حاجة هتظهر في وقتها، ادعي لنا انت بس إن الوزارة تو افق على المشروع،لأن مش هنقدر نقضي على الوباء دا إلا بمساعدة الحكومة وبكدا الدولة تستفيد من كميات كبيرة من الميّة كانت

مهدرة ولما نطهر النيل من التلوث اللي فيه هنقضي على بكتيريا وديدان كتيرة جابت الأمراض للفلاحين وغيرهم.

.يا رب اشرح صدر الحكومة، واجعلها تو افق على هذا المشروع.

هتف الجميع وراء العمدة :

.آمين يا رب .

التفت صلاح إلى الرجال الذين هتفوا وراء العمدة وقال في ابتسامة خفيفة:

. شكرا لكم يا أبطال، تقدروا تتفضلوا مشكورين، وبكرة إن شاء الله هنتقابل لأن قدامنا عمل كتير.

ظل العمدة و اقفا إلى جوار الدكتور ، فما زال في رأسه الكثير من الأسئلة التي تشغل باله وتفكيره، ويريد أن يجيبه عليها "صلاح"، قال وهو لا يزال قلقًا من أن الوزارة ربما لا تو افق على هذا المشروع:

.قل لي يا دكتور .. ازاي وامتى جالنا الوباء الخطير ده ؟!

. النبات دا يا حضرة العمدة جابه الخديوي "توفيق" من أوروبا علشان يزيّن به البرك والمستنقعات اللي كات قدام قصره، وبعدين اتسرّب من قصره للنيل، ومن وقتها وهو عمال يتغول وينتشر على سطح النيل، وعامل زي الخلايا السرطانية، تعرف يا حضرة العمدة النباتة الواحدة منه بتنتج في الشهر كام؟

.كام يا دكتور ؟!

. النباتة الواحدة من نبات ورد النيل بتنتج في الشهر الواحد ثمانية وأربعين ألف نباتة .

. يا مغيث .. أغثنا يا رب .

. والكارثة أنه بيستهلك من الميه في السنة حوالي تلاتة مليار متر مكعب، دا في مصر لوحدها، وكمية الميه دي تكفي لزراعة ميت فدان جديدة.

. وليه الحكومة سايباه يكبر ويرعرع في النيل، وليه المسئولين ما فكّروش يقضوا عليه مادام خطير كدا؟!

. في الحقيقة الحكومة حاولت كتير تقضي عليه بالطرق الميكانيكية مرة، والطرق البيولوجية مرة تانية، لكنها ما نجحتش في السيطرة عليه؛ علشان تكاليف القضاء عليه عالية يمكن توصل مائة وخمسين مليون جنيه كل سنة.

. استنّى يا دكتور براحة علي .. أنا مش فاهم الفرق بين الطرق الميكانيكية، والطرق البيولوجية، يعني ايه؟

. آسف يا حضرة العمدة .. الطريقة الميكانيكية تكون باستخدام نوع معين من المكن اللي ببقطع ورد النيل من جذوره ويفتته، أما الطريقة البيولوجية بيستخدموا بعض الحشرات تكون عدو له، ودا نوع من الخنافس بيسلّطوه على ورد النيل عشان ياكله، ورغم ان الطريقة دي نجحت إلا إنها مقدرتش تقضي عليه نهائياً؛ علشان الجزء الباقي من النبات بيتحول لنبات جديد ويتمدد مرة تانية.

. مفيش طريقة تخلينا نستفيد من النبات ده ؟!

. في الحقيقة أضراره أكثر من فوايده، وكان فيه فكرة إننا نستخدمه كعلف حيواني، لكن قيمته الغذائية مش عالية ولها شروط، أما أضراره فهو بيحتاج لكميات كبيرة من الميّه، وبيعطّل الملاحة النهرية، ويقلل نسبة الأكسجين في المية ودا بيأثر على السمك، وكمان بيشجع على زيادة القواقع والديدان والزواحف .

.واضح يا دكتور أنك عارف حاجات كتير عنه .

. طبعًا يا حضرة العمدة الواحد علشان يعالج مرض معين لازم يعرف كل حاجة عنه، ولو داخل حرب لازم يعرف كل التفاصيل عن عدوه علشان يقدر يغلبه.

.وايه اللي ممكن نعمله في الأيام الجاية لأننا مش لازم نستنا الحكومة؛ لأن يومهم بسنة.

. هنبدأ بتطهير كل الترع الصغيرة والاهراي والقُنْي الموجودة في البلد وبعدين نغرس شبك بلاستك عند الهدّار اللي في أول القرية علشان يحجز النبات وراه ، ودا حل مؤقت لحد ما الوزارة تساعدنا في الحل النهائي.

.ربنا يبارك لنا فيك يا دكتور صلاح، ويزيدك من علمه، أنا دي الوقت قلبي اطمن..كنت بحسب أننا هنفضل حاطّين ادينا على خدنا ونستنا دور الحكومة، لكني لقيتك عامل حسابك على كل حاجة وحاطط خططك الأصلية والخطط الاحتياطية.

. أيوه يا حاج "مصطفى"، أي واحد عاوز يعمل مشروع معين لازم يحط له بدايل لأنه ما يضمنش الظروف اللي تخليه ينفذ الخطة الأصلية، وعلى فكرة لسه عندي حلول تانية بس مش هتظهر إلا في وقتها.

. ما شاء الله عليك يا دكتور "صلاح"، أنت بحر من العلم ، ربنا يحرسك ويحميك لشبابك يا ولدي، ويديم عليك نعمه في الدنيا والآخرة.

. يكفيني الدعوة الصالحة من رجل صالح زيّك يا حاج "مصطفى" .

. شكراً يا ولدي .. ولكن أنا لي رجاء عندك يا دكتور، وأتمنى ما ترفضوش.

. إذا كان في استطاعتي يا حاج مصطفى عمري ماتأخر لحظة، لأن أفضالك عليّ وعلى بلدنا كتيره.

. عاوزك تقبل دعوتي وتتكرم بإنك تشرف على أرضي علشان الإنتاج بتاعها بقى ضعيف قوي ومش عاجبني.

. أنا تحت أمرك يا حاج مصطفى لكنك عارف إني مشغول بأبحاثي ومحاضراتي.

. أفهم من كدا إنك هترجع المدينة تاني ؟!

. طبعًا، إنت عارف إن هناك شغلي وأحلامي وطموحي .

. وهنا..؟

. هنا .. هنا بلدي وبيتي والجنة اللي بتمتع بيها لما أكون تعبان أو لما بحسّ بالغربة ودوشة المدينة ودوامة الحياة.

. واللي عملته في البلد عملته لمين؟! دا انت خليتنا نشم هوا نضيف لأول مرة في حياتنا.

. اللي عملته هنا عملته لأهلي وحبايبي وأصحابي ومعارفي ، عملته لنفسي لما آجي أستريح فيها، ولما أكون مشتاق لحضنها الدافي.

. لكن كل دا مش هيعفيك من المسئولية اللي بكلفك بيها ، إنت عارف إني في مقام أبوك وليا عليك حق الطاعة.

. و أنا تحت أمرك .. لكن أنا متأكد إنك مش هترضى لابنك التعب وتحمّله فوق طاقته.

. يا ابني أنا مش عاوز منك إلا إنك تمر على أرضي بين الوقت والتاني تتابع الفلاحين وتديهم تعليماتك وإرشاداتك، ولو مرة واحدة كل شهر.

. هي مساحة أرضك قد ايه يا حاج مصطفى؟

. ميت فدان، خمسين فدانًا زرعتهم عنب من عشرين سنة و إنتاجهم بقى ضعيف الظاهر إن شجر العنب كبر وعجّز زي حالاتي فما عادش يجيب محصول زي زمان، أما الخمسين التانيين بزرعهم رز وبرسيم.

. أنا مو افق يا حاج بس لي شروط .

. كل شروطك مقبولة .

. استناني ..يمكن ما تعجبكش شروطي .

. اتفضل قول كل شروطك يا دكتور.

. الغلط الكبير اللي وقع فيه معظم الفلاحين في بلادنا إنهم انخدعوا بالفلوس والمكسب السريع والمريح وداسوا على تقاليدهم وعاداتهم في الزراعة.

. أنا مش فاهم حاجة من اللي بتقولها يا دكتور .. أنا كل اللي عاوزه منك إنك تشرف على أرضي ، مالي أنا بقى من اللي الناس بتعمله؟

. يا حاج "مصطفى" .. أرجوك .. اديني فرصة أكمل كلامي.

. اتفضل يا دكتور .

. كل المساحات التي اتزرعت عنب في مصر من عشرين سنة أو أكتر، كانت بتتزرع ايه قبل كده ؟

. كانت بتتزرع غلّة أو درة، أو قطن .

. ربنا يفتح عليك، كان الفلاحين بينتجوا القمح ويخزنوا اللي يكفيهم لمدة سنة ، ويبيعوا باقي المحصول، مش دا اللي كان بيحصل؟

. أيوه يا ابني ..

. ساعتها ماكانش فيه أزمة عيش ، تعرف ليه؟

. طبعًا علشان الناس كان عددهم صغير غير دلوقتي.

. لا يا حاج مصطفى مش دا السبب، ماكانش فيه أزمة لأن الفلاحين ما كانوش بيشتروا العيش المدعم ، كانوا بيخبزوا في بيوتهم أما العيش كان لسكان المدن بس ، ولما الفلاحين زرعوا أراضيهم عنب وبطّلوا يزرعوا القمح اضطروا يزاحموا الناس اللي في المدن والأخطر من كده أن بعض الناس بيزاحم علشان ياخد العيش يعملوا علف للطيور والمواشي، ومن هنا ظهرت الأزمة، وعلشان كدا اضطرت الدولة إنها تستورد كميات كبيرة من القمح من الخارج علشان تسد العجز اللي عندنا، فكانت في كل مرة تخضع لضغوط سياسية من الدولة المصدرة، وإذا حاولت أن تهرب من هذه الضغوط وتستورد من دولة أخرى كانت مضطرة إنها تقبل نوعية رديئة من القمح وغالية في التمن، ولما حصلت الخصخصة وادخّل رجال الأعمال في السوق وكانوا كمان من أصحاب السلطة ماكانش يهمهم إلا الفلوس وعمل ثروة كبيرة على حساب الغلابة والمطحونين، فكانوا بيستوردوا الدقيق المسرطن،

والقمح المخصص لأعلاف الحيوانات وبعدين ينزلوه السوق من غير رقابة ولا متابعة، وعلشان فيه أزمة حقيقية في العيش فالشعب كان مضطر إنه يأكل أي حاجة قدامه علشان يعيش، ومن هنا جيت الأمراض الخبيثة اللي انت عارفها.

.و أنا دوري إيه في كل اللي بيحصل ده ؟

. أنت فرد يا حضرة العمدة .. والدولة عبارة عن أفراد، وما تنساش إنك العمدة، لو عملت حاجة الناس طبيعي يقلدوك، كل اللي بطلبه منك إنك تقطع شجر العنب وتزرع مكانه قمح وذرة وفول زي زمان و أنا أوعدك إن أشرف عليها وأخلّي الأرض تجيب أضعاف اللي كات بتجيبه، المحاصيل دي هي اللي كانت مخلية عملتنا زمان لها قيمة بين عملات الدول التانية، وعلشان كده كان المصري له قيمة في أي دولة.

. طيب أنا عندي اقتراح إننا نزرعها لبّ وسوداني، مش دي برضه محاصيل بتكسّب.

. رجعنا تاني للكلام عن المكسب السريع يا حاج مصطفى .. هو اللب من المحاصيل الضرورية التي بيعتمد عليها الناس في حياتهم الأساسية ؟

. طب إيه رأيك في الرز الناس بتاكل الرز، أهو محصول ضروري.

. وهي الناس بتعتمد على الرز كوجبة أساسية كل يوم زي إندونيسيا وغيرها من دول شرق آسيا ؟! احنا مش هنمشي مع التيار اللي بيدور على المكسب السريع يا حاج مصطفى، وما تنساش إن الرُّز أكتر محصول بيجهد التربة، دا غير إنه بيحتاج لكميات كبيرة من الميه اللي لازم نحافظ على كل نقطة لأن الحروب اللي جايه هتبقى حروب علشان المَيّه.

. أمّال نزرعها إيه ؟

. هنزرعها قمح وبرسيم وفول وذرة وقطن، انت عارف يا حاج مصطفى الرسالة اللي قدمتها لدرجة الدكتوراه كانت عن ايه ؟

. ما اعرفش يا دكتور .

. كانت في البكتيريا اللي جدور النبات بتنتجها، وازاي بتأثر على التربة الزراعية، واتوصلت إن جدور البرسيم، وجدور الدرة، والقمح، والفول بتنتج أنواع من البكتيريا بتزود من خصوبة التربة وتزود الإنتاج عن معدله الطبيعي، وأنا أقدر أنتج النوع دا من البكتيريا وأنشرها في التربة بدل الكيماوي اللي الناس بتستخدمه ويضرهم في أرضهم وصحتهم.

قال الحاج مصطفى وقد ظهرت على وجهه علامات الانبهار:

. الله .. أنا مش قلت لك إن العلم نور يا ولدي ؟ على أي حال أنا موافق على كل شروطك ، ومن بكره تستلم أرضي اعمل فيها ما بدا لك.

. أشكرك يا حاج مصطفى إنك منحتني الفرصة دي علشان أرجع الحياة في قريتنا لزمنها الجميل، وجوها الساحر ومحاصيلها المفيدة، يمكن وزارتنا تاخد بالها من اللي بنقدمه فتعمم الفائدة على الدولة ويصبح لدولتنا مكانة بين الدول زي زمان، ويصبح لنا كلمة بين الشعوب لأن من يملك قوته يملك قراره وحريته.

(٣)

قدم "صلاح" بحثه إلى مركز البحوث العلمية ليحصل على براءة اختراع ، كي يتمكن من عرض مشروعه على الوزارة لتقوم بتمويله، هو يعلم أن الروتين في بلده قد عشش و أفرخ، بل أصبح مثل هذا النبات الغريب ينتشر بسرعة في كل مكان، يعرقل سير الماء الجاري، ويصبح بيئة خصبة صالحة لتكاثر الطفيليات والبكتريا والحشرات والجراثيم، هكذا حال الروتين في بلادنا، لكنه رغم علمه بكل هذه الأمور إلا أنه لم يستسلم بل ظل يتابع بحثه ويتنقل وراءه من مكان إلى مكان كأنما هو طفل يتعهده بالرعاية، ويتابعه بالحماية حتى لا يصبح في مهب الريح .

وجد أن الروتين الحكومي طريقه شاق طويل، ولو ظل منتظرًا هذا الأمل حتى يتحقق لتبددت من حوله حماسة الأهالي، ولن يستطيع مرة ثانية أن يجمعهم إليه، أو أن ينفخ في نيران هذه الحماسة حتى تشتعل من جديد فربما يطفئها اليأس ، أو يصبح هو غير قادر على إشعالها من جديد.

كان عليه أن يواصل حملته في تجميل القرية، وإزالة أسباب التلوث فيها حتى تصبح قرية نموذجية تقتدي بها كل القرى، لم يمر عام واحد حتى أصبحت القرية بشوارعها النظيفة وأشجارها الجميلة وجداولها الرقراقة الصافية، وترعتها التي تكاد ترى قاعها من صفاء مياهها، وقلوب أهلها التي اجتمعت على قلب رجل واحد، أصبحت القرية مصدر جذب لكثير من محبي الطبيعة الجميلة وعشاق الرحلات والمتنزهات، وجمعيات حقوق الإنسان التي أجمعت على اختيار هذه القرية كقرية نموذجية، وبدأت الإعانات تتوالى من الهيئات والمؤسسات الأهلية والحكومية والعالمية، فكان لابد من عقد

جمعية عمومية لدراسة المشروعات الجديدة وتقديم المقترحات للحفاظ على ما وصلت إليه القرية .

جلس عمدة القرية بين أهالي القرية الذين وفدوا من كل مكان مرفوع الرأس، ولم لا ؟ أليس هو أول من بارك هذا المشروع، وأول من ساهم فيه بالمال والنفوذ ؟ أليس هو أول من وضع ثقته في هذا المهندس الدكتور صلاح الذي حوّل القرية إلى جنة خضراء وارفة الظلال، وألّف بين القلوب، ونزع الأحقاد من قلوب المتباغضين فإذا هم قد تحولوا إلى أشباه ملائكة تمشي على الأرض ؟!.

ما أعجب القدر..! وما أعجب حال البشر في بلادنا ..!

هل كان الناس في القرية ينتظرون رجلا اسمه "صلاح" كي يجمع شتاتهم، ويؤلّف بين قلوبهم ، ويوحد صفوفهم ، ويحقق بهم هذه المعجزة في زمن توارت بل انتهت فيه المعجزات؟!

إن الخير لايزال موجوداً في أمتنا، ففي أصعب الظروف وأسوأ الأحوال كان دائمًا في هذه الأمة شخص تترقبه العيون، وتهفو إليه الأرواح، فإذا ما أتى ونادي بالاتحاد والعمل يتسارع إليه الناس كالأمواج يلبون دعوته ويقفون معه صفًّا واحدًا، وما حدث في هذه القرية خطوة من خطوات الإصلاح في الأرض وعمارتها، وسبيلٌ من سبل الوحدة والتكافل والتكامل ونهوض هذا الوطن.

الكل سعيد مبتهج بما وصلوا إليه لكن "صلاح" مازال مشغولًا بما هو آتٍ، مازال عقله شاردًا فيما يجب فعله في المرحلة المقبلة، عقل هذا الرجل لا يمل التفكير، وطموحه لا يقف عند حد، يريد المزيد والمزيد فقريته الصغيرة ليست كل آماله أو طموحاته، و إنما الأمة الإسلامية كلها هي مركز تفكيره، ومقصد آماله وتطلعاته .

بدأ الحفل الكريم بتلاوة آيات من الذكر الحكيم، ثم بكلمة لإمام المسجد الكبير في القرية، الذي تناول موضوع البيئة والحفاظ عليها في القرآن والسنة، و أنهى كلمته بالثناء على أهل القرية وعلى جهودهم المبذولة في هذا الصدد، وخص بالثناء رجلين عظيمين كان لهما أكبر الأثر في هذا المشروع، وهما الحاج "مصطفى البدري" عمدة القرية، والدكتور المهندس "صلاح أحمد الهنساوي" ذلك البطل الهمام الذي كان يحيا في المدينة حياة مرفهة ثم يترك هذه الرفاهية وتلك الحياة الوثيرة، ويأتي إلى القرية من أجل أن ينفذ فيها أحلامه ومشاريعه وتطلعاته، وهذا إن دل فإنما يدل على انتمائه لوطنه و انتمائه لجذوره وحب الخير لأهله وللآخرين ، ثم أعقب هذه الكلمة كلمة لعمدة القرية الذي وقف بين أهالي قريته في شموخ وحمد الله ثم أثنى عليه بما هو أهله، ثم قال :

. أبنائي وبناتي .. إخواني وأخواتي أهالي قريتنا الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. أحب أعرفكم إن ربنا بيحب القرية دي؛ لأنه أنعم عليها بنعم كتير، ومن أهم النعم دي الدكتور صلاح الهنساوي، الرجل العالم العظيم اللي بيحب بلده وبيحب أهله وناسه وبيخلص لوطنه وأمته، فضّل حياة التعب في القرية على الحياة المريحة المرفهة في المدينة، كان بيشتغل ليل مع نهار في صمت زي الجندي المجهول، مش عايز حاجة من الدنيا غير إنه يسعد اللي حواليه ويرضي ربنا في كل عمل له، جمع الناس وحببهم في بعض ، وحرك النخوة اللي فيهم، بصراحة ربنا بعته لينا في وقت كانت القرية بتاعتنا عبارة عن جثة هامدة، ريحتها كانت فاحت، اتحولت على ايديه بقدرة قادر إلى عروسة جميلة متزوّقة وريحتها زي المسك، والناس جيت لبلدنا يتفرّجوا على المعجزة اللي حصلت هنا، فالراجل دا يا جدعان هو عريس الليلة، وهو السبب في الخير اللي احنا فيه دي الوقت، ومن هنا أنا بوجّه شكري ليه

ولكل شباب القرية وأدعو الله أن يديم علينا الحب والوحدة والنشاط، ويخلي لنا الدكتور صلاح ويبارك لنا فيه وفي علمه ، الراجل دا لسه في مخه أفكار كتير، و أنا معرفتش معنى البركة الحقيقية إلا بعد ما أشرف على أرضي وخلّى الإنتاج بتاعها يزيد، فإن كان حد في البلد دي يستاهل التكريم فهو الدكتور صلاح .. وفي الختام أشكر كل الحاضرين، والحمد لله أولا وآخراً ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

صفق الجميع تصفيقًا حادًّا للعمدة، وتطلعت العيون إلى هذا الشاب الذي فعل بالقرية فعل الساحر، وحولها في عام واحد إلى قرية أخرى غير ما كانت عليه، ليس في المظهر فحسب و إنما في المظهر والمخبر.

وقف الدكتور صلاح أمام أهالي قريته في مهابة وخشوع، وحَيّا الجميع بابتسامة رقيقة و انحناءة لطيفة وقال :

. أهل قريتي الكرام .. إخواني وأخواتي .. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .. أنا في البداية بتوجه بالشكر الخاص لعمدة القرية الحاج مصطفى الراجل العظيم اللي ساندنا بماله وجهده ونفوذه فله مني كل الشكر وأحب أعرفكم إن أنا اتولدت في القرية دي وتربيت فيها ونشأت على عادات وتقاليد وأخلاق طيبة ، و أنا صغير كنت بروح مع والدي الله يرحمه الغيط فكنت بشوف الحب في عيون الناس والضحكة الصافية والاحترام المتبادل بين الناس ووقوفهم جنب بعض وقت الشدة والأزمات، في وسط الدفا والحنان اتربيت فحبيت البلد وتمتعت بمناظرها الجميلة وهواها الطيب، لحد ما كبرت واضطريت أسيب البلد وأروح العاصمة علشان شغلي و أبحاثي وهناك حسيت بالفرق بين الحياة اللي عايشها في الحاضر والحياة اللي متخزنة في الذاكرة حسيت كإني عملت ذنب كبير انطردت بسببه من الجنة، لقيتني بحنّ لبلدي ومشتاق لترابها فجيت علشان أحضن كل حاجة فيها، لكن للأسف

جيت لقيت كل حاجة اتغيّرت المناظر الحلوة ماعدتش موجودة ، والدفا اتحول لبرودة، ولقيت الناس كل واحد عايش لنفسه زي سكان المدن، وبصّيت في عيون الشباب لمحت فيهم اليأس والإحساس بالضياع، وشعور بالسلبية واللامبالاة، لكني شفت من ورا الحاجات دي كنوز مدفونة جواهم، و إيدين بتتمدّلي كإنها بتستنجد وبتطلب مساعدتي كل اللي عملته نفخت في التراب اللي مغطي الكنوز دي ومديت إيدي أطلع المعدن الأصيل منهم وآخد بإيدهم وبالفعل قاموا معايا ورموا الكسل واليأس ورا ضهرهم وعملوا المعجزات في بلدهم وعلشان كدا فالفضل كله يرجع لهم في الإنجازات اللي اتعملت في البلد فلولا الشباب وجهودهم لكان المشروع يفضل حبر على ورق، فلهم مني كل الشكر والتقدير.

أما بخصوص الحديث عن خطتنا المستقبلية لتنمية قريتنا فأنا لقيت إن المصابين بمرض الفشل الكلوي منتشرين في القرى، وبعد البحث ظهر إن المرض راجع لمياه الشرب اللي بيشربها سكان القرى فتوكلنا على الله تعالى وعزمنا على إننا نعمل في قريتنا محطة كبيرة لتنقية مياه الشرب، هذه المحطة تقوم بفلترة المياه ومعالجتها معالجة صحية يعتمد عليها أهالي القرية في شربهم، وما زال في جعبتنا الكثير من المشروعات النافعة للقرية لكننا آثرنا أن نجعل الأولوية لهذا المشروع؛ لأنه قد أصبح ضروريا لقريتنا، وفي ختام حديثي أتقدم بخالص الشكر لكل الجمعيات والمؤسسات التي اهتمت بقريتنا وجادت عليها بالعطاء، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

لم يكد "صلاح" ينهي حديثه العذب حتى غمرت الساحة موجة قوية من التصفيق الحاد المتواصل كالمطر المنهمر، وعلا هتاف الحاضرين يتغنون باسم الدكتور "صلاح" الذي قام أكثر من مرة ليبادل الجمهور التحية، ويشكرهم على هذا الحب والتقدير.

جلس مع الحاضرين رجل وسيم في أوائل الخمسينيات من عمره، يبدو عليه أثر النعيم، وعلامات الغنى، يتابع الندوة باهتمام، ولا يفارق بصره وجه صلاح منذ حضر، يتابعه في حديثه، ويتابعه في صمته وحركاته وسكناته، وبين الحين والحين تبدو على أسارير وجهه علامات الزهو والافتخار، فيهز رأسه في رضًا كأنما يقول لنفسه، ها أنا الآن قد وجدت بغيتي، قد وجدت الشخص المناسب الذي أبحث عنه.

انتهى الاجتماع، ومضى كل في طريقه، لكن العمدة كعادته في نهاية كل اجتماع يظل يسير إلى جوار صلاح حتى يقترب صلاح من بيته، فيستأذنه العمدة ثم يواصل سيره إلى بيته، لكن قبل أن يصل صلاح إلى بيته جذب انتباههما ذلك الرجل الذي كان يطارد صلاح بنظراته، والذي ظل يسير خلفهما، فوقفا فجأة، وتوجه إليه العمدة بالسؤال في حدة وغضب:

. حضرتك مين ؟

. أنا فاعل خير، عاوز أشارككم في مشروعكم العظيم .

. مشروع إيه اللي عاوز تشارك فيه ؟

. تنقية المياه، أنا حضرت الندوة وعجبني المشروع فقررت أن أساهم فيه .

. وعاوز تدفع كام ؟

. خمسين ألف جنيه .

علت الدهشة وجه صلاح ووجه العمدة، ونظر كلاهما إلى الآخر نظرة حيرة وتعجب، كيف ؟ إن المحطة كلها تتكلف خمسين ألف جنيه، فسأله العمدة من جديد:

. وسيادتك منين ؟

. أنا من القرية اللي جنبكم.

. ابن مين ؟ أنا عارف البلد اللي جنبنا فرداً فرداً .

. أنا من عيلة الراعي يا حاج مصطفى، وأنا سيبت البلد من تلاتين سنة ، سافرت إيطاليا واشتغلت فيها لحد ما ربنا أكرمني بقرشين قلت أستثمر في بلدي ، اشتريت مساحة محترمة في الصحرا واستصلحتها وبزرع فيها خضار وفاكهة وبصدرها للخارج، ولما سمعت عن الدكتور صلاح ومشاريعه وعن بحوثه في زيادة خصوبة التربة وعلاج النبات بطريقة طبيعية بعيد عن الكيماوي جيت أتعرّف عليه وأطلب منه إنه يشرف على أرضي لأني بصدّر لبريطانيا والإنجليز لما بيلاقوا نسبة كيماوي في الخضروات بيردوها لنا تاني.

. وانت عاوز تدفع خمسين ألف جنيه علشان تكسر عين الدكتور صلاح ويقبل يشتغل معاك ؟

. أبدًا والله يا عمده، أنا عجبتني الفكرة والشغل اللي انتم عاملينه في بلدكم فقلت أساهم بالمبلغ دا تقدير مني للجهد المشكور اللي بذلتوه ويكون لي ثواب المشاركة معاكم في العمل العظيم، حتى لو الدكتور رفض الإشراف على أرضي فأنا تبرعت بالمبلغ لله ومش هكون ندمان على فعل الخير، بس دي فرصة للدكتور صلاح وأرجو إنه ما يضيعش الفرصة دي من إيده.

قال "صلاح" :

. حضرتك تقصد ايه بكلمة فرصة ؟!

. أنا سمعت عنك كتير يا دكتور "صلاح" ، وعارف إن حلمك الحقيقي إنك تشوف المحاصيل الزراعية في بلادنا خالية تماما من السموم والكيماويات الضارة، وأنت عندك العلم والخبرة وأنا عندي الأرض والمال، أنا هحقق حلمك وانت هتحقق حلمي.

انفرجت أسارير "صلاح"، الآن ظهر من يقدر على تمويل مشروعه، وينقل الفكر إلى الواقع والتطبيق، فنظر إلى العمدة وهو يبتسم، فبادله العمدة ابتسامة حانية، وقال :

.على بركة الله يا دكتور "صلاح" ، و أنت يا أستاذ ....

."محمود" .. اسمي "محمود" يا حاج "مصطفى" .

. ومبارك عليك يا أستاذ "محمود" ، فنعم الاختيار ، ربنا يوفقكم جميعًا، ويجعل تعبكم بفايدة للناس ويكون في الخير دايماً، لكن أوعى يشغلك المشروع الكبير عن أرضي يا دكتور ولا عن بلدك، الناس هنا محتجالك أكتر ما إنت محتاج لهم.

قال "صلاح" وهو يبتسم :

.وهو فيه حاجة في الدنيا ممكن تشغلني عنك وعن أهل بلدي يا حاج مصطفى؟! أنا عمري ما أنسى فضلكم عليّ ، والله لو وصلت للعالمية هافضل مدين لك ولأهل بلدي.

.أنا بشكرك يا ولدي على ذوقك وأدبك ..!!

ثم نظر الحاج مصطفى إلى السماء وبسط يديه وقال في خشوع:

. اللهم بارك له في صحته وعافيته ووفقه في كل أعماله لما تحبه وترضاه، وحقق كل طموحاته وأحلامه وما تحرموش من أهله وأسرته يا كريم.

استأذن العمدة ومضى في طريقه إلى بيته ، أما صلاح فاستضاف الرجل الغريب في بيته ليعقدا اتفاقاً بينهما، وليضع كل منهما شروطه التي تلائمه وتحقق له ما يصبو إليه .

لم يستطع "صلاح" أن يغادر قريته إلا بعد أن اطمأن إلى تشغيل محطة تنقية مياه الشرب في القرية وبدأ الفلاحون يستخدمونها، وقبل أن

يغادر القرية كان عليه أن يمر على بيت العمدة ليودعه، وليوصيه بالقرية خيرًا، فقال العمدة وقد اغرورقت عيناه بالدموع لفراق الحبيب :

. بقى كدا تسيبنا وتمشي يا دكتور ؟

. غصب عني يا حاج مصطفى .

. أنت دي الوقت روح البلد، إزاي يجيلك قلب وتسيبها وتمشي ؟

. والله يعزّ عليّ فر اقها؛ البلد دي يا حاج مصطفى هي الدم اللي بيجري في عروقي، لكن ربنا قال (فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه) يمكن في رحلتي الجديدة دي أكتشف حاجات ما اقدرتش أكتشفها هنا، ويمكن كمان أتوصل لنتائج أكثر دقة في أبحاثي فأرجع أطبقها هنا في قريتي لأني مؤمن بالمثل اللي بيقول: اللي مافيهوش خير لأهله مافيهوش خير لحدّ.

. صدقت يا دكتور، ولكن أرضي مش هوصِّيك عليها.

. ماتخافشي يا عمدة سيبها لله .. أنا هازوركم مرة كل شهر علشان أتابع أرضك، و أتابع أحوال القرية.

. أنت ابن حلال .. ذكّرتَني .. كنت هانسى .

. يا ترى ايه اللي كنت هاتنساه يا حضرة العمدة؟

. كنت عاوز أسألك بخصوص القرية : ايه المشروع الجديد اللي انت ناوي تعمله بعد كدا ؟ أصل الأهالي اتعودت منك على كل جديد وعاوزين يعرفوا.

. مشروعنا اللي جاي بمشيئة الله تعالى محطة لمعالجة مياه الصرف.

. وهي تختلف عن المحطة اللي عملناها قبل كدا؟

. طبعًا يا عمده ، المحطة اللي أنشأناها بتنقي الشوائب والمواد الضارة من مية الشرب علشان الأهالي يشربوا ميه نضيفة، أما المحطة التي ناوي

اعملها فمهمتها تنقية مياه المجاري و الصرف الصحي وعلاجها علشان تكون صالحة للزراعة ودي مش للشرب، عرفت الفرق يا حضرة العمدة ؟

.أيوه أنا عرفت دي الوقت ، مش قلت لك قبل كده إن العلم نور؟!

ضحك صلاح وضحك معه العمدة ذو الدم الخفيف والروح المرحة وتعانق الاثنان عناقًا طويلًا حارًّا ، واستأذن صلاح العمدة واتجه إلى بيته ليأخذ أسرته معه إلى المدينة ، وليبدأ من جديد رحلة أخرى مع الكفاح والجهاد والسعي وراء الرزق ، وتحقيق الأحلام التي ظلت حيناً من الدهر رهن الاعتقال في الرؤوس أو بين دفتي كتاب أو بحث.

(٤)

عاد صلاح بأسرته الصغيرة إلى المدينة ثانية، فقد أوشك العام الدراسي الجديد أن يبدأ، ولابد أن يكون قريبًا من مقر عمله في الجامعة، وقريبًا إلى حد ما من الأرض الجديدة التي سيتابعها في الصحراء، كما يجب أن تكون "سارة" في المكان الذي نشأت فيه وأصبح لها فيه صداقات مع بعض زميلاتها خصوصًا وأنها الآن قد أصبحت في الثانوية العامة ولابد أن تهيأ لها الظروف المناسبة لتحصل على أعلى الدرجات كما عوّدت الأسرة دائمًا في كل سنواتها الدراسية.

وهناك سبب آخر كان أقوى الأسباب التي دفعت صلاح إلى مغادرة القرية ، فكل الأسباب السابقة يمكن التغلب عليها إذا أراد البقاء في القرية لكن السبب الأقوى والدافع الأهم الذي كان وراء هذا الرحيل أن أهالي القرية كانوا كثيراً ما يسألونه عن زوجته ، وعن ابنته التي ظهرت في حياته فجأة ، وكانوا لا يكفون عن مطالبته بالزواج فهو ما زال شابًّا ، بل إن بعض الأهالي قد عرض عليه إحدى بناته ليتزوجها، لكنه كان في كل مرة يهرب من أسئلتهم المتكررة، ويلوذ بالصمت تارة ويغير مجرى الحديث تارة أخرى، أما هنا في المدينة فلا أحد يسأل كل واحد مشغول بنفسه، لا يكاد الجار يعرف جاره، وهي كارثة بالطبع لكنها على أي حال تنجيه من استجوابات تغضبه، وتطفل لا يعجبه .

كان عليه أن يعمل ليل نهار ويثابر في عمله كي ينال . في المقام الأول . رضا ربه، وليحوذ على ثقة رجل الأعمال الجديد، وليرضي طموحه، وليصل إلى أفضل التقنيات في الزراعة من أجل أن يرقى بوطنه وأمته.

وذات مساء دخلت عليه ابنته "سارة" وهو منهمك في بحثه فوقفت تنتظر استشعاره بوجودها، ولأنه كان منشغلًا بتجربة من التجارب، لم يشعر بوجودها، فنادته وهي غاضبة :

.بابا .. بابا .. مش حاسس بوجودي معاك ؟

التفت إليها وقال بلسان متلعثم كأنما يستيقظ من نوم ثقيل، وعيناه قد عشيت من طول انكبابه على الكتب :

.سارة .. تعالي يا حبيبتي ، إنت لسّه سهرانة لحد دي الوقت ؟

.لحد امتى هتفضل مشغول عني ؟ لحد امتى كتبك وتجاربك هتاخدك مني ؟ فين حقي عليك يا سي بابا؟! لما كنا في البلد كنت دايما شايفاك مشغول أقول لنفسي دي حاجة طارئة وهيرجع لي تاني يلعب معايا ويحكي لي حواديته الجميلة، كنت فاكرة إنك ليّ لوحدي مش لحد تاني.

.طبعًا يا روحي أنا ليكِ لوحدك محدش بيشاركك فيّ، وعلشان كدا أنا رفضت الجواز علشان ماتجيش واحدة تبعدني عنك ، كل اللي بعمله يا سارة علشانك إنت عاوز أوفّرلك حياة كريمة و أبعد عنك كل المشاكل.

.لكن حضرتك بتخلص لأبحاثك أكثر من إخلاصك لي، كل اللي عاوزاه منك أن تدّيني نص الوقت اللي بتديه لأبحاثك.

.أنا خايف أضيع وقتك، إنت دي الوقت في الثانوية العامة وكل دقيقة إنت محتاجة ليها.

.في السنتين اللي عدّوا كنت بشوفك زي الضيف، وما أخبيش عليك أنا كرهت القرية علشان أخدتك مني ، ولما رجعنا للقاهرة حمدت ربنا وقلت خلاص بابا رجع لي تاني لأن مفيش هنا عمدة ولا أهالي ياخدوك مننا ومفيش هنا غيطان تشغلك عننا ألاقيك جيت و انشغلت في المعمل بالتجارب.

. من حقك يا سارة إنك تغيري من كل الحاجات اللي بتاخدني منك، لكن بالله عليك انت مش فخورة بينك وبين نفسك باللي عملته في القرية؟

. طبعا .. أنا فخورة بكل أعمالك، وكان فخري بك بيزيد كل ما أشوف الفرحة في عيون الأهالي، وكل ما أشوفهم يبصوا لي باحترام لأني بنت الراجل اللي فرّحهم، ودخّل السرور على قلوبهم.

. آهي السعادة اللي أنا شايفها دي الوقت في عينيك و أنت بتتكلمي هي اللي بتهوّن عليَّ كل صعب، وتخلّيني دايما أدوّر على الحاجات اللي ممكن تجيب لك السعادة.

. أفهم من كلامك إن مافيش فايدة، و أنك هتفضل مشغول علطول عنّي وعن عمتي؟

. ما تخافيش يا سارة ، أنا بمشيئة الله هاحاول أنظم حياتي عشان أوفرلك الوقت الكافي، وأشوف الفرحة في عنيك زي زمان.

. أشكرك يا أحن وأغلى أب ، كنت و اثقة إن حضرتك مش هتكسفني، وإن تعبي مش هيروح هدر.

. دا اللي عاوزه منك..إنك تبقى دايمًا و اثقة من نفسك ومن قدراتك، وإن جهودك في أي عمل مش هتروح هدرلأن ربنا سبحانه وتعالي لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

. خلاص أنا مش هعطّلك أكتر من كدا تصبح على خير يا أغلى أب في الدنيا.

. تصبحي على خيريا أجمل سارة في الدنيا.

خرجت الفتاة و اتجهت إلى غرفتها، وهي تمشي على أطراف أصابعها كيلا تقلق والدها الحنون أو عمتها الرحيمة، وتسحبت إلى سريرها كالملاك الرقيق، وغاصت في سبات عميق.

مرت الأيام سراعاً والتحقت سارة بكلية الطب، وكل يوم يمر من عمرها تزداد بهاءً وجمالًا وشبابا وحيوية ورزانة، كل الطبيعة من حولها كانت تبتسم لها، وتتراقص فرحا لرؤيتها، لكن قلب صلاح يزداد انقباضا ورهبة من المستقبل، يخشى في كل حين أن يقرع بابه من يأتي لخطبتها، كأنما كان يخشى من هذا القادم أن يسرقها منه، ولذا كان يغار عليها من النسيم العليل؛ فكان يتعهدها حينما تخرج أن تكون في حشمة كاملة ووقار حتى لا تكون مطمعا لذئب من الذئاب البشرية .

نعم لقد رباها على العفة والحياء والحشمة والأخلاق الكريمة، ومع هذا كان يغار عليها، ويخشى أن تقع فريسة لبعض الشباب المستهترين الذين يعزفون على أوتار الحب الرومانسي الطاهر المبرأ من الأغراض الحسية فإذا ما لانت لهم إحدى الفتيات، وانخدعت ببريق الكلمة الرنانة تحولوا إلى ذئاب مفترسة جائعة لا يرعون للمجتمع قيمًا ولا أصولًا، ولا يرقبون فيمن تستجيب لهم عهدًا ولا ذمة.

هذا التغير في المعاملة والذي كان يصل في بعض الأحيان إلى الشدة والاستجواب جعلها تشكو لرفيقتها وصديقتها القريبة إلى قلبها "سلمى" التي كانت تستمع إلى شكواها بقلب أم ، وتعطيها رأيها النابع من عقل حكيم .

ذهبت "سارة" إلى صديقتها "سلمى" ذات يوم، وهي حزينة، فسألتها سلمى:

. ما لك يا سارة، فيه حاجة مزعّلاك ؟

قالت سارة وهي تحاول أن تخفي أحزانها :

. أبدًا يا سلمى..مفيش حاجة.

. لكني شايفة في عينيك حاجات.

. ما فيش حاجة في عيني.. أنا كويسة.

.طيب ما فيش عندك سر عاوزه تقوليه لصاحبتك وأختك سلمى ؟!

نظرت إليها سارة في صمت ولم تنطق بكلمة، فواصلت سلمى حديثها:

.على أي حال لما تحبي تفضفضي لحد هتلاقي أختك سلمى مستنياكِ تسمعك وتحافظ على سرك.

لم تستطع "سارة" أن تتمالك نفسها وتتغلب على أحزانها فسالت دموعها على خديها، فضمتها "سلمى" إلى صدرها في حنان، وقالت:

.فضفضي يا سارة، طلّعي كل اللي في قلبك، فرّغي شحنة الغضب اللي جوّاكِ انت قلبك رقيق ما يستحملش الحزن اللي ماليه.

.والدي يا سلمى..

.الدكتور صلاح ؟

.أيوه .

.ما له ؟

.اتغير كتير.

.إزاي ؟

.بقى بيتعصب لأتفه الأسباب، ولو اتأخرت دقيقة عن معادي تكون مصيبة .

.دا أمر طبيعي يا سارة، كل أب عنده بنت في جمالك وحلاوتك لازم يغير على بنته، ويخاف عليها من الهوا الطاير.

.لا يا سلمى دي غيرة فوق العادة تخلّيني أحسّ بإنه فاقد الثقة فيّ.

.لا يا سارة .. جايز تكون ضغوط العمل كثيرة عليه، فتلاقيه ينفعل لحاجات ممكن تبقى في نظرك تافهة لكنها كبيرة في نظره، وإن جيتي للحق الدكتور صلاح دا راجل مثالي بمعنى الكلمة أنا مشفتش في حياتي واحد في رجولته ولا في علمه ولا في أخلاقه، راجل بمعنى الكلمة، راجل جاي من كوكب

تاني، أو بمعنى أدق هو رجل من الزمن الجميل، انت عارفة يا سارة؟ في بعض الأحيان بحسدك على والدك؛ لأنه فضّل إنه يعيش أرمل بعد وفاة والدتك علشان يتفرغ لتربيتك تربية صحيحة، عكس واحد زي والدي اللي اتجوز بعد وفاة ماما بشهر، وانت عارفة قد ايه اتهدلت أنا واخواتي بسبب زوجة الأب.

.فيه حاجات انت ما تعرفهاش عن والدي يا سلمى.

.تعرفي تقوليلي ايه الحاجة اللي أنا مش عارفاها عن والدك؟ والدك يا سارة واضح زي الشمس وصافي زي السما الصافية .

. صح إنت فعلًا وصفتيه صح لما قلت زي السما الصافية لكن فيه غيوم بتعكّر الصفاء ده، والغيوم دي للأسف مش عارفة حقيقتها ولا عارفة مصدرها.

.قصدك إيه يا سارة ؟

. تصدقي يا سلمى إن بابا من عشر سنين تقريبا عمره ما أخدني في حضنه، ولا قبلني زي معظم الآباء لما بيقبلوا أولادهم زي ما يكون مستعرّ مني، كنت لما أرجع من المدرسة وأكون متشوّقه له أجري عليه علشان أرتمي في حضنه لكنه فجأة يديّر لي ضهره وينادي على عمّتي فتشوف الخجل في عيني فتاخدني في حضنها.

. معقول اللي بتقوليه دا يا سارة ؟ والدك دا بير مليان حنان، معقولة يقسى عليك بالشكل دا؟ أكيد إنت غلطانة أو مش فاهماه كويس.

.أنا حاسّة إن في حياته سر كبير وكاتمه عني.

.أسرار إيه؟

.في بعض الأوقات أسمعه بيتكلم مع عمتي في شيء معين ولما أقرّب منه ويحس بوجودي ألاقيه يغير الكلام اللي كان بيتكلم فيه ، وساعات يطلع

علشان يصلي العشا ما يرجعش إلا نص الليل، أنا حاسه إن حياته مليانه بالأسرار.

. أعتقد أن في حياته واحدة ، أعتقد إنه متجوز ، وعمتك على علم بالموضوع ، لكنهم مخبيين عنك السر ده لحد ما يظهر ابن الحلال ويتحوزك .

. و أنا ما أحبش أكون آخر من يعلم .

. وهتعملي إيه ؟

. هار اقبه من غير ما يشعر، وأحاول أعرف مين الست دي اللي أخدته مني وغيّرته من ناحيتي.

. قلبي معك يا سارة ، لكن لو صح ظني أرجوك ما تعمليش أي حاجة قبل ما تاخدي رأيي.

. خلاص أنا مو افقة.

. وإن طلع تخميني في غير محله اوعديني يا سارة إنك تخطبيه ليّ.

ضحكت الصديقتان ضحكة صافية، وودعت كل منهما رفيقتها، وخرجت "سارة" متجهة إلى بيتها عازمة على أن تكشف سر أبيها الغامض، وأن تتابعه حتى ترى إن كان يخدعها أم إن ما تحسه وتشعر به مجرد أوهام، ووساوس، وسحابات صيف عن قليل تتبدد وتنكشف.

(٥)

في ظلمة الليل اختبأت سارة ومشت خلف أبيها دون أن يشعر بها حتى دخل بيتًا من البيوت المتواضعة في منطقة من المناطق الشعبية ، انتظرت في مخبئها حتى مضى من الوقت ربع ساعة ثم انقضّت على الباب تقرعه بعنف ، فتح صلاح الباب فإذا بابنته سارة تقف على الباب والغضب منتشر على وجهها، نظر إليها بدهشة، وقال :

. سارة ؟! إيه اللي جابك هنا ؟ وعرفتِ منين إني هنا؟

أجابت والدمع يسيل من عينيها :

. أنا جيت وراك علشان أعرف السر اللي مخبيه عنّي .

. سر إيه اللي أنا مخبيه عنّك ؟

. السرّ اللي انت مش عاوزني أعرفه، الست اللي موجودة هنا، واللي حضرتك متجوزها.

ضحك صلاح ضحكة عالية ونسي غضبه، وقال لابنته :

. تعالي يا سارة علشان تشوفي مرات أبوك.

دخلت وهي ساهمة واجمة تتلفت يمينًا ويسارًا حتى أدخلها على رجل عجوز كفيف مقعد، قال الرجل العجوز:

. من اللي معاك يا دكتور ؟

أجاب الدكتور "صلاح":

. معايا أغلى هدية ربنا أهداها ليَّ يا شيخ "طلبة".

قال الشيخ بلهجة الواثق:

. أكيد الدكتورة "سارة" .

تعجبت سارة ونظرت إلى الشيخ "طلبة" نظرة دهشة، وقالت في نفسها كيف عرفني هذا الرجل الكفيف ؟

أجاب الدكتور "صلاح":

. أيوه .. هي بنتي سارة اللي كلمتك عنها كتير يا شيخ طلبة.

ثم اتجه صلاح إلى ابنته وقال لها:

. الراجل دا شيخي يا سارة ، كنت بحفظ القرآن على إيديه و أنا صغيّر، ولما ربنا أنعم عليّ بنعمة الستر والعافية جبته من القرية وأجّرْت له الشقة دي، لأنه مالوش حد يرعاه، وياخد باله منه، وكل ما بلاقي نفسي فاضي أجيله أقعد معاه شوية، أطبخ له لقمه ياكلها وأدّيه العلاج، وأغسل له هدومه، وأرتّب له حاجته، و بعد ما أطّمّن عليه أرجع لبيتي.

نظرت سارة إلى أبيها نظرة احترام وتوقير ثم ارتمت على كتفه وهي تبكي وتقول :

. أنا آسفة .. أنا مكسوفة من نفسي كنت ظانة بك السوء في الوقت اللي انت بتعمل فيه الخير، إنت عظيم أوي يا بابا.

. يا سارة يا حبيبتي، دينّا العظيم دايماً بيدعو إلى التراحم والتعاون والتكافل، وتوقير الكبير، والعطف على الصغير، ودا شيخي اللي بفضله وصلت للي أنا فيه دي الوقت، مش من الواجب إن أردّ له بعض الجميل اللي له في رقبتي؟!

. ليه ما عرّفتنيش على شيخك من زمان؟! هو دا شيء يدّارى؟!

. خفت إن أتعبك معايا وضيّع وقتك الثمين.

. كل الأوقات تهون قدّام الحاجات العظيمة اللي شايفاها دي الوقت، أنا لازم أفتخر بيك قدام الدنيا كلها.

. و إنت فاكرة إني باعمل الحاجات دي علشان الشهرة والفخرة؟! أنا بعمل كدا لأنه واجب عليّ، ياللا قومي ساعديني علشان ننجز عملنا بدري لإن فيه أسرة تانية عاوزين يتعرفوا عليك، ونفسهم يشوفوكِ.

. أنا كنت تافهة أوي و أنانية لما اتمنيت إنك تكون ليّ لوحدي مش لحد تاني، أنا دي الوقت أسعد إنسانة في الوجود.

. هو دا طعم الإيمان يا سارة له حلاوة ما يحسهاش إلا الإنسان اللي يخلص في عمله ويكون في خدمة الناس وقضاء حوايجهم؛ لأن من مشى في حاجة أخيه المسلم كان له من الأجر عبادة شهر في مسجد الرسول ﷺ.

ساعدت "سارة" أباها في ترتيب المنزل وتنظيفه وطهي الطعام الذي اشتراه معه قبل أن يأتي إلى بيت هذا الشيخ العجوز، وبعد انتهائهما من عملهما جلس "صلاح" إلى جوار شيخه وراح يطعمه بيده حتى فرغ الشيخ من وجبته ، فجعل يدعو الله لهما بالخير والبركة والصحة والعافية والستر في الدنيا والآخرة ، ولم يتركاه إلا بعد أن اطمأنَّا عليه ، فاستأذناه وخرجا إلى بيت آخر في حي آخر من أحياء القاهرة العتيقة .

دق "صلاح" جرس الشقة فهرع إلى الباب ثلاثة من الأولاد وهم يقولون في فرحة غامرة :

. عمي "صلاح".

فتح الأولاد الباب ودخل "صلاح" فاحتضنهم إليه، وراح يوزع القبلات عليهم ، وسارة واقفة تتأمل في ذهول من هؤلاء الأطفال الذين ينالون من أبيها أكثر مما تنال ؟

كان في استقبالهما جد الأولاد وجدتهم لأبيهم، رحّبا بسارة أحسن ترحيب، وأخرج الدكتور "صلاح" لكل واحد من الأولاد هديته دون أن ينسى الجد والجدة، التف الأولاد حوله يطلبون منه أن يقص لهم بعض الحكايات

القديمة، فاشترط عليهم أن يناموا بمجرد الانتهاء من الحكاية، و افق الأولاد وراحوا يستمعون إليه وهو يحكي وعيونهم تلمع في شوق ولهفة لمعرفة القادم من الأحداث حتى راحوا في سبات عميق ، التفت الدكتور إلى ابنته وهو يقول لها :

.الأطفال دول أبناء المهندس "نبيل" اللي عمل حادثة السنة اللي فاتت وكان الله يرحمه من أعزّ أصدقائي، أمهم سابتهم وراحت اتجوزت زميل لها في الشغل، والعيال عاشوا في حضانة جدهم وجدتهم و أنا كل مدة أمرّ عليهم علشان ألاعيهم وأخفف عنهم وأشاركهم أفراحهم وأحزانهم.

لم تستطع سارة أن تنطق بكلمة منذ رأت أباها يضم الأولاد إلى صدره ، ويطبع على جبين كل واحد منهم قبلة لطيفة تحمل كل معاني الرحمة والحنان والإنسانية ، ترى أهؤلاء الأطفال أغلى عنده منها حتى يستقبلهم هذا الاستقبال ؟ إن الغيرة ألهتها عن المعنى الإنساني اللطيف الذي جاءت من أجل أن تستشعره ، وتلتذ به .

استأذن "صلاح" من جد الأطفال، ثم خرج ومعه ابنته "سارة" ليعودا إلى بيتهما، وفي الطريق لم تفتح سارة فمها بكلمة لكنّ تقطيبة علت وجهها تنبئ بحزن داخلي، مضيا في طريقهما حتى وصلا إلى بيتهما ،كانت الساعة حينئذٍ تقترب من منتصف الليل، أسرعت "سارة" إلى حجرتها في صمت ، وجلس الدكتور "صلاح" على كنبة في حجرة المعيشة، نظرت "سناء" إليهما في دهشة ، وقالت :

. ما لكم مبلمين ليه ؟ عاملين زي ما تكونوا متخانقيين ، انتم كنتم فين؟!

رد "صلاح" وهو يضع يده على جبينه :

.من فضلك يا "سناء" ، ممكن تحضريلي فنجان قهوة ؟!

. قبل فنجان القهوة .. أنا عاوزه أعرف انتم كنتم فين؟!

. بالله عليك يا "سناء" سيبيني دي الوقت، أنا مش في الفورمة، اعملي لي فنجان القهوة بسرعة.

أعدت "سناء" القهوة وقدمتها لأخيها ، ثم سألته عن سارة:

. هي سارة مالها؟ شايفاها واخدة في وشّها وداخلة أوضتها.

. ما أعرفشي .. ابقي ادخلي لها واعرفي مالها، وتعالي طمّنيني.

استأذنت "سناء" للدخول على "سارة" ففتحت لها الباب وهي مطرقة حزينة، فقالت العمة لها :

. ضيّ القمر غايب ليه الليلة دي يا سارة ؟ يكون حصل له خسوف ، واللا احنا في آخر الشهر؟! ولا دي غيامة؟! فين ابتسامتك الحلوة؟ فين صوتك اللي كان بيجلجل في البيت زي صوت الكروان؟ وفين ضحكتك الحلوة اللي بتنوّر حياتنا ؟!

. أرجوكِ سيبيني لوحدي يا عمتي لأني تعبانة شوية .

. لا .. مش هسيبك لحد ما اعرف مالك وليه دخلت أوضتك مبوّزة، ومن غير ما تقولي لي تصبحي على خير يا عمتو زي كل ليلة ؟

. الصبح ها قول لك إيه اللي مزعلني .. !

. لا .. مش هسيبك وانت دموعك على خدّك بالشكل دا ، هوّ بابا ضربك ولا زعّلك؟

. أبدا يا عمّتي.

. أكيد اتعصّب عليك وانتم بتتكلموا، أنا عارفة صلاح أخويا لما بيكون عصبي؛ لأني أنا اللي ربيته زيّ ما ربّيتك هو ساعات بيكون عصبي شوية لكن قلبه أبيض من اللبن.

. يا عمتي .. بابا ما ضربنيش، ولا اتعصّب عليّ، المشكلة فيّ أنا.. فيه حاجات ملخبطاني وقالبة كياني.

. ايه يا حبيبتي اللي ملخبطك ومشقلب كيانك؟ تكونيش بتحبي؟

. حب إيه يا عمتي اللي بتقولي عليه، أنا فيه سؤال محيّرني وعاوزاك تجاوبيني عليه بصراحة.

. إيه هو السؤال اللي محيّرك يا سارة ؟

. أول ما اتولدت بابا فرح بيّا ولا كان مضايق لأني بنت وكان نفسه في ولد ؟!

. ليه بتسألي السؤال دا دلوقتي يا سارة ؟

. لحاجة في نفسي ، وأرجوك تجاوبيني بالحقيقة حتى لو كانت مرة .

. بالعكس يا سارة أبوك أول ما شافك كان طاير من الفرحة ، وكان دايما يقول بأن البنت بتكون أحنّ على أبوها وأمها من الولد، وسمعته وهو بيقول: الحمد لله إن ربنا رزقني ببنت يارب قويني وعينّي على تربيتها تربية حسنة علشان تكون حماية ليا من النار، وسبب لدخولي الجنة.

. بتتكلمي جد يا عمتي ؟

. هو دا اللي حصل يا روح عمتك ، ولكن ليه بتسأليني السؤال دا؟ انت طلبت من والدك حاجة ورفض يجيبها لك ولا قصّر معاك في حاجة ؟

. بالعكس .. بابا مش مخليني عاوزه حاجة ، لكني ملاحظة إنه كل ما آجي ارتمي في حضنه يهرب مني وملاحظة كمان إنه عمره ما باسني زي الآباء ما بيعملوا مع أولادهم.

. أنا مقصّرة معاك يا سارة ؟! أنا مش بضمك لصدري وأحضنك؟!

. كنت محتاجه لحضنه هو علشان أحس بالأمان.

. انت غلطانة يا سارة حضن الأم هو اللي بيحسس الواحد بالحنان والأمان.

. وهي فين أمي يا عمتي .. ؟! إنت عارفة إنها ماتت وأنا صغيرة مالحقتش أتهنى بحنانها.

. وأنا يا سارة.. ما كنتش أم لك ؟ أنا مش ادّيتك كل حناني وعطفي طول السنين اللي فاتت؟!! بقى أنا مسهرتش عليكِ أعالجك لمّا تكوني تعبانة ، وآخد بالي منك لما تكوني زهقانة، يعني أنا ما أنفعش أكون أم .. إخص عليك يا سارة ما كانش العشم.

. لا يا عمتي.. أرجوك.. أنا مش قصدي، أنا آسفة ، أنا مديونة لك بحياتي وعمري، أنت أمي الحقيقية لأنك اللي ربيتيني، وادّتيني العطف والحنان وكنتِ لي نعم الأم ، لكن اللي بقصده إني من أول ما وعيت للدنيا وأنا مش فاكرة إن بابا ضمني له ولو مرة، فكنت خايفة يكون بيكرهني لأني بنت، والفكرة دي جيت في ذهني لما شوفته بيحضن أولاد زميله.

. لما كنتِ طفلة زيّهم كان بيلعب معاك، ويبوسك، ويحضنك، ويشيلك على رجله، وعلى كتفه، ما أنت كنت بنته الوحيدة، وانت اللي ماليه عليه حياته ودنيته ، لكن لما كبرتِ عاوز يربي فيك الاعتماد على النفس.

لمعت الفرحة في عين سارة وهدأ بالها، وقالت:

. شكرًا يا عمتي .. إنت دي الوقت ريّحت قلبي الله يريّح قلبك .

. خلاص يا سارة لو عاوزه قلبي يرتاح بصحيح قومي معايا اعتذري لبابا ، واطلبي منه يسامحك على سوء ظنك فيه.

. معاك حق يا عمتي .

خرجت "سارة" من حجرتها، وقفت أمام أبيها في خشوع ومهابة تريد أن تعتذر له عن سوء ظنها فيه ، وهو الذي ضحى بسعادته من أجلها ، ضحى بشبابه وبراحته ، و آثر حياة الكفاح والشقاء من أجل أن يوفر لها كل سبل الراحة ، ويحقق لها كل أسباب السعادة، وقفت تنظر إليه، والحياء يتفجر من خدّيها المتورّدين ، ولمعت في عينيها الجميلتين دمعة عزيزة، فهب و اقفاً وقلبه يهفو إليها فجرت نحوه في براءة الأطفال، وجد نفسه مستسلمًا لهذا الحضن الأبوي الذي طالما اشتاقت إليه "سارة " وكثيرًا ما انتظرته، وأخذ يطبع على جبينها المشرق المتلألئ قبلة حانية أرسل فيها كل معاني الشوق والحنين، وغاص كل منهما في دنيا عامرة بالنشوى ومحفوفة بالأحلام السعيدة، ولم يخرجهما من هذا العالم الساحر سوى صوت "سناء" وهي تنادي عليهما في صوت حزين:

.كفاية .. انتم قطّعتم قلبي من الحزن .. ياللا يا "سارة" روحي لأوضتك .. إنت عندك محاضرات في الكلية بكرة، و أنت يا دكتور .. نسيت إن وراك عمل كتير؟ ياللا قوم نام، النوم راحة وهيساعدك على الجد والنشاط.

تسللت سارة إلى غرفتها وهي تودع أباها بابتسامة عذبة ساحرة ، دون أن تدري أن ابتسامتها هذه قد أشعلت في قلبه نارًا من نوع جديد لا يعلم مداها إلا الله ، ولن تستطيع مياه الدنيا إخمادها.

(٦)

خاصمه النوم، وأرّقه السهر في تلك الليلة، وبات يفكر في عالمٍ جديد كان مجهولًا بالنسبة له، عالمٍ تسبح فيه روحه لأول مرة، فيشرق في نواحيها نور الأمل، عالَمٍ يسحر العقول، ويأسر القلوب البريئة !! ما أعذبه، وما أحلاه ذلك العالم الذي تشكّل من ضوء القمر، وحبات المطر، وعطر الزهور، و أناشيد الطيور ..!!

أحب هذا العالم حبًّا ملك عليه عقله وقلبه، وشرب منه شربة الظمآن،كأنما كان في شوق إليه، هذا العالم كثيرًا ما كان يخشاه ويحذره، كان يخاف أن تأتي اللحظة التي يصبح فيها فريسة للغرام، لكنه وجد نفسه يستسلم أمام نسماته الباردة، وهمساته الدافئة.

راح يسأل نفسه : ما هذا الشعور الجديد؟ وما هذا الإحساس الغريب ؟ أهو الحب ؟!

لماذا تأخر عليّ كل هذه السنين ؟ ولماذا اختار "سارة" دون غيرها ؟! ماذا أقول لها ؟ ماذا أقول للدنيا إذا جاءت تعاتبني ؟! يا لحظي التعس ..! ويا لقلبي الجريح ..! كم أنت لذيذ أيها الحب ! وكم أنت قاسٍ عنيف..! أنا لا أدري هل أهنئ نفسي أم أعزّيها ؟!

وبينما هو شارد في عالمه الجديد، وألمه اللذيذ إذ دخلت عليه أخته "سناء" فوجدته جالسا على سريره واجمًا، وعلى خدَّيه استقرت دمعتان حارّتان لم يتمكن من إخفائهما، فنادته في لهفة:

."صلاح" .. مالك ؟

رد "صلاح" وهو يغالب بكاءه :

.تعبان يا "سناء" .

. مالك يا حبيب أختك ؟! حاسس بإيه .. حاجة معينة تعباك ؟!

. مش عارف لكني حاسس إني صبحت جسم بلا روح، حاسس إن روحي مش معايا كأنها عايشة في عالم غير العالم اللي أنا عايشه.

قالت والخوف يعتصرها :

. هاتّصل على الدكتور يجي يشوف فيك إيه.

. على مهلك يا سناء يا أختي.. مفيش دكتور في الدنيا ها يعرف يشخّص مرضي.

. عاوزني أقعد أتفرّج عليك و إنت بتضيع مني؟ لازم أتصل بالدكتور

. يا "سناء" .. أنا مش محتاج دكتور، أنا محتاج حدّ أفضفض له وأشكيله همي.

. اشكي لي يا خويا .. إيه اللي مضايقك أنا أختك الكبيرة و أنا اللي مربياك فضفض لي و أنا أكتر واحدة هتسمعك وتحافظ على سرك.

. مش عارف يا "سناء" أبدأ منين، أنا خجلان من نفسي.

. هوّن عليك ياخويا، وقل لي إيه اللي جرالك ؟

. أنا بمرّ بأزمة عاطفية ..لأول مرة قلبي يدقّ جامد بالشكل دا.

. الله .. الله ، الدكتور "صلاح" الراجل الحديدي أخيرًا وقع في المصيدة، بقيت فريسة للحب بعد ما وصلت الأربعين يا صلاح ياخويا؟!

. وهو الحب له وقت يا "سناء" ؟

. لا ... لكن ...

. لكن إيه؟

. قصدي إن الإنسان بعد الأربعين عقله بينضج ويقدر يتحكم في عواطفه.

. لا يا "سناء" ..مين اللي قال إن العقل ضد الحب، العقل عمره ما يمنع الحب، العقل بيتحكم في العواطف ويروضها زي ما الواحد بيروّض الخيل، ومادام الواحد لسه جواه قلب يدق يبقى معرّض للحب في أي لحظة، وبيجي دور الدين اللي بيحط شروط للحب، علشان الواحد ما يعربدش في خلق الله ويرتكب الفواحش باسم الحب.

. ومين يا ترى البنت اللي قدرت تقلب حياتك كدا، وتخليك حزين بالشكل دا ؟!

."سارة".

ظهر على وجهها ملامح الغضب، وقالت باندهاش:

. مين ؟ بتقول مين ؟!

. بقول "سارة".

. مالك يا "صلاح".. ؟ إنت اتجننت .. فيه راجل يعشق بنته ؟!

. أنت عارفة كويس إن "سارة" مش بنتي.

. لكن "سارة" عارفة إنك أبوها، والناس كلهم عارفيين إنها بنتك، هتقول لها ايه ؟ وتقول إيه للناس اللي حبّوك وأخلصوا لك في محبتهم ؟! إنت نسيت إنها أمانة عندك، و إنَّك وصِيٌّ عليها ؟

. مش ناسي يا "سناء"، وربنا يشهد إني ربيتها أحسن تربية، وحافظت عليها كأنها بنتي اللي من صلبي، وصنت لها عرضها وكرامتها وشرفها، لكنه القدر...

. لا..لا .. ما تتمحّكش في القدر.. دي رغبتك المجنونة اللي معششة جواك من سنين، كنت بتسمّنها علشان تأكلها، و انت كدا ما تختلفش عن زليخا مع يوسف ربته وأكلته و أنعمت عليه ، ولما كبر وأصبح شاب راودته عن

نفسه ، دا مش حب يا دكتور فوق.. دي مجرد نزوة، دا شغل الشيطان والنفس الأمارة بالسوء.

. لا يا "سناء" بالله عليك ما تشهنيش بامرأة العزيز، اللي دفع امرأة العزيز إلى "يوسف" ما كانش غير شهوة، ورغبة حيوانية، أما اللي بحسه ناحية "سارة" حاجة تانية مختلفة، دا شعور نبيل، وإحساس راقي، وحب طاهر بريء.

. أنا بتعجب إزّاي اتولد الحب دا في يوم وليلة، أنا ما شفتش في حياتي حب يظهر فجأة وبدون مقدمات.

. في الحقيقة ما ظهرش فجأة ؛ أنا من أربع سنين و أنا كل ما أشوف "سارة" بتكبر قدام عيني بحس بشعور غريب كنت دايمًا أكتمه وأخبيه جوّه قلبي، وأداريه عن عيونها وعيون الناس، لكنه فضل يكبر ويتمدد في قلبي وعروقي، وخصوصا لما شفت فيها الصفات اللي كنت بتمناها في فتاة أحلامي وزوجة المستقبل.

. أنت نسيت فرق السن اللي بينك وبينها ؟! نسيت إنك أكبر منها بعشرين سنة أو أكتر؟!

. وامتى كان فرق السن يمنع الواحد من أنه يتجوز اللي بيحبها ؟!

. سيبك من فرق السن، تفتكر إن "سارة" ممكن تو افق بيك لو عرفت إنّك مش أبوها ؟!

فوق يا دكتور من الغيبوبة اللي انت فيها، جيتلك فرص كتير تكون فيها زوج وأب بصحيح لكنك ضيّعت كل الفرص من إيدك.

انت اخترت من الأول إنك تكون أب لسارة، ما تخلّيش الشيطان يلعب براسك ..حاول تشيل الفكرة دي من دماغك وانسى الكلام الفارغ دا من أساسه، ولازم تعرف إن من رابع المستحيلات إنك تتجوز "سارة"، وإن كنت بتحبها بصحيح لازم تضحّي بحبك علشان سعادتها.

قالت "سناء" هذه الكلمات التي خرجت تنساب على شفتيها من عقلها الحكيم ، لكن قلبها الرحيم كان يتفطّر على أخيها الذي كتب عليه القدر أن يُحرَم من أسمى عاطفة في الوجود، و أن تصادر أحلامه قبل أن تولد بيدي أخته التي تحبه أكثر من حبها لنفسها، لأنه أصبح كل دنياها بعد وفاة أبيها وأمها وزوجها.

(٧)

كان على "صلاح" أن يبحث سريعاً عن حل لمشكلته، وأن يجد علاجًا لمرضه ، قبل أن تزداد المشكلة تعقيدًا، وقبل أن تظهر في عينيه أو على ملامح وجهه علامة من علامات هذا الحب المدفون بين ضلوعه.

توصّل بعد جهد طويل إلى ضرورة ترك البيت والابتعاد عنه لفترة من الوقت إلى أن يلتئم جرحه، أو تتبدّل عاطفته تجاه "سارة"، ويراها كما كان يراها بعيني قلبه طفلته الصغيرة المدللة.

تمكن من الحصول على إجازة بدون مرتب من الكلية لمدة عام، ورتب الأمر مع أخته، وطلب منها أن تخبر "سارة" بأن أباها جاءه عقد عمل مفاجئ في إحدى الدول العربية، وهي فرصة نادرة قلما تأتي لأحد من الناس فكان لابد من اغتنامها قبل فوات الأوان، وترك معها خطاباً لسارة يعتذر لها فيه لأنه لم يتمكن من توديعها، وفي الحقيقة فإنه كان متعمدًا أن يخرج من البيت في وقت تكون "سارة" خلاله في الجامعة لكيلا تشتعل من جديد نار الحب التي يسعى بكل ما أوتي من قوة إلى إخمادها.

حمل حقائبه وأمتعته ووضعها في سيارته الخاصة، ثم ودّع أخته وداعاً حارّاً، انهمرت له دموعهما، ثم تركها ومضى إلى الصحراء حيث الأرض التي يرعاها ويشرف عليها، الأرض التي يمتلكها رجل الأعمال المشهور "محمود الراعي" الذي اتصل عليه صلاح هاتفياً، وأخبره بأنه قد تفرغ لهذه الأرض تفرغاً تاماً، و أنه في طريقه الآن إليها.

سُرَّ رجل الأعمال بهذا الخبر السعيد الذي كان يتمناه ويترقبه، و انتقل على الفور إلى الأرض كي يستقبل الدكتور "صلاح" أفضل استقبال، وهناك أعدّ له حفل استقبال مهيب يليق بمكانته، و أنزله منزلًا كريمًا حيث خصص

لإقامته فيلا صغيرة جميلة كان يستقبل فيها عملاءه من الأجانب، ولما سأله أحد رجال الأعمال المدعوين إلى هذا الحفل عن سر هذه الحفاوة البالغة بالدكتور "صلاح" أخبره "محمود"رجل الأعمال بأن صادرات شركته قد زادت إلى الضعف، وهذا الفضل يرجع إلى جهود الدكتور "صلاح" في الإشراف على زراعة المحاصيل التي يصدرها رغم أنه كان يشرف عليها عن بعد ، فكيف الحال إذا أقام في هذه الأرض لمدة عام يتابعها يومًا بيوم ؟

لا شك أن الحال سيكون أفضل بكثير مما هو عليه الآن، وسيكون لهذه الشركة بفضل جهود الدكتور "صلاح" صيت في كل بلاد العالم؛ لأن هذا الرجل صاحب قدرات خارقة.

هيأ رجل الأعمال "محمود الراعي" للدكتور "صلاح" المناخ الملائم، والظروف المناسبة للبحث العلمي، ووفر له سبل الراحة، وأمده بالمال اللازم، وأعانه بمجموعة من الشباب يكونون معه كفريق عمل يساعدونه في أبحاثه كي يصل إلى أفضل النتائج في أقرب وقت ممكن.

قام العمل في المزرعة على قدم وساق، بحث ، وفحص ، وتجارب ، ونظريات ، وتطبيق على أرض الو اقع حتى استطاع أن ينتج في زمن وجيز مئات الأنواع من البكتيريا النافعة للتربة، والمفيدة للنبات، فهناك بكتيريا تعمل على تثبيت النيتروجين من الهواء الجوي في التربة، وبكتيريا تعمل على إذابة أملاح الفوسفات الصخري غير الذائبة وتحويلها إلى أملاح فوسفات ذائبة، وبكتيريا تعمل على إذابة الفسفور والحديد وتحرير عنصر البوتاسيوم وغيره من العناصر المرتبطة بمعادن التربة الزراعية حتى يستطيع النبات امتصاص هذه العناصر، وبكتيريا تعمل على تمثيل ثاني أكسيد الكربون مما يزيد من الكربون العضوي في التربة، وأخرى تعمل على أكسدة مركبات الكبريت غير الذائبة وتحويلها إلى صورة ذائبة.

كما أن هناك بكتيريا تعمل كمنشط للنبات، وبكتيريا أخرى تعمل كمضادات حيوية تثبط نمو بعض الميكروبات التي ينتج عنها أمراض النبات.

وجد "صلاح" في هذا العمل المستمر والكفاح المتواصل فرصة سانحة لأن يدفن فيه همومه وأحزانه وذكرياته وأشواقه الحرّى التي لا تزال تغزو قلبه وعقله بين الحين والآخر لاسيما في الليل الطويل حينما يخلو إلى نفسه فتجعله تارةً يتمايل كالسكران، أو كعود القشّ حين تعبث به الريح في يوم عاصف، فيصير بين يديها بلا إرادة، وتارةً أخرى تجعله يهذي كمن أصابه الجنون فيقول في نفسه :

.وحشتيني يا سارة.. يا ترى انت عاملة ايه ؟ سهرانه زي ما أنا سهران أعدّ النجوم، وأكلم الليل الطويل اللي مش شايف له آخر..؟! يا ترى بتعاني الوحدة والفراق زيّ ما بعاني؟! ولا بتنامي وقلبك خالي؟

بتعدّي الساعات وبتتمني الصبح يطلع علشان تشوفيني؟! أنا بعدّ الدقايق والثواني اللي بتمرزي السنين في بعادك.

نفسي أشوفك واشتكي لك حالي، وأوصف لك حبي اللي ياما سهّرني الليالي، كنت فاكر البعد عنك هيكون علاجي ، ما كنتش أعرف إن الفراق بيزود نار الشوق اللي قايدة في ضلوعي صدق والله "مطران" لما قال:

إني أقمتُ على التَّعِلَّةِ بالمنى ... في غربة قالوا تكون دوائي
إن يشْفِ هذا الجسمَ طيبُ هوائها ... أَيُلَطِّفُ النيرانَ طيبُ هواءِ؟!
عبثٌ طوافي في البلاد وعِلَّةٌ ... في عِلَّةٍ منفايَ لاستشفائي

كان يجهد نفسه ويرهق بدنه في العمل كيلا يَدَعَ لذهنه طاقة للتفكير في شيء آخر ، فيستسلم بعد جَهْدٍ ومشقةٍ لنوم ثقيل، لكنه رغم هذا كله لا يستطيع الهرب؛ فكيف له أن يهرب وصورة "سارة" تطارده في منامه، كما تطارده في أحلام يقظته.

مرّ شهران ثقيلان كأنهما في الغربة عامان، تذكر شيخه، وأسرة صديقه، وعمدة القرية وكل أحبائه وأصدقائه، اشتاق إليهم جميعًا، لكنهم يستطيعون تدبير أحوالهم بدونه إلا رجل واحد هو الشيخ "طلبة" شيخه الذي نقله معه إلى القاهرة، وليس له أحد يرعاه، كان لابد أن يجد طريقة للذهاب إليه والاطمئنان عليه، فتنكر في صورة شيخ عجوز وحمل معه بعض الهدايا وبعض الأطعمة ثم ركب سيارته و انطلق كالصاروخ يطوي الصحراء طيًّا، حتى وصل القاهرة مع غروب الشمس، اضطر لترك سيارته في مكان بعيد حتى لا يتعرف عليها أحد ومشى على أقدامه حتى وصل بيت الشيخ، قرع الباب، قام الشيخ "طلبة" يفتح له، وبعد أن فتح الباب سأله :

. انت مين ؟!

. أنا "صلاح" يا شيخ "طلبة".

."صلاح" مين ؟

. أنت نسيتني يا شيخ طلبة ؟ أنا ابنك "صلاح" تلميذك اللي انت حفَّظته القرآن.

. صلاح ابني ؟ انت مش سافرت بره البلد ؟

. خليني أدخل الأول وبعدين اسألني زي ما أنت عاوز.

. اعذرني يا بني .. المفاجأة نسيتني الواجب .. اتفضل.. أنا علمت إنك سافرت لدولة عربية، ودعيت لك إن ربنا يوفقك في أعمالك كلها.

. إزّاي عرفت إني مسافر؟

.عرفت من بنتك "سارة".

."سارة" ؟ و انت قابلت سارة فين ؟

.هنا يا دكتور .. في بيتي.

.هنا في بيتك .. إزاي؟!

. من ساعة ما إنت سافرت وهي بتيجي هي وزميلتها سلمى مرتين في الأسبوع يوم الإثنين ويوم الخميس زي ما كنت انت بتجيلي قبل كدا، وقالت إنك وصّيْتها عليّ، ربنا يكرمها هي وصاحبتها ويبارك لك فيها وما تنحرمش منها أبدًا، بس بصراحة طبيخهم أحسن من طبيخك وبينجزوا عملهم بسرعة ويروحوا قبل المغرب علشان بيكونوا صايمين، ومسكت فيهم أكتر من مرة يفطروا معايا بس ما بيرضوش، فأقول في نفسي: ذرية بعضها من بعض، بارك الله فيك وفي ابنتك يا دكتور "صلاح" ورزقها الله بالرجل الصالح الذي يعرف لها قدرها، ويقدر معدنها الأصيل.

. نعم .. صدقت يا شيخي الجليل، فأفضل نعمة ينعم بها الله على الرجل في الدنيا الزوجة الصالحة، وكمان أعظم نعمة ينعم بها ربنا على المرأة في الدنيا الزوج الصالح اللي يصونها ويعرف حقوقها، ويتقي ربنا فيها.

شرد "صلاح" بذهنه للحظات ثم قال في نفسه:

. يا سلام يا "سارة" .. يا ريتك كنت بنتي بصحيح ، ما كنتش أتعذّب العذاب اللي أنا فيه، اسمك وخيالك بيطاردني في كل مكان؟! بشوف صورتك في كل حاجة حلوة حواليا..انت إيه؟! عملالي عمل ولا ايه؟! قدام عينيّ و أنا صاحي وبشوفك في أحلامي، باهرب منك علشان أشوفك في وردة جميلة بتفتح عنيها وهي بتصحى الصبحية، بشوفك في كل نباتة ضعيفة محتاجة رعاية، وبشوفك على وش الميه اللي بتروي الزرع فتدب فيه الحياة، في كل مكان أروحه ألاقيك سابقاني.. أجري وراك زي المجنون علشان أشم ريحتك

الطيبة، وأمللي عيني من سحر عنيك الجميلة..و أفضل أجري وأجري لحد ما لاقيش قدامي غير السراب...!!

يا رب يا حنّان.. هو أنا سيء لدرجة إنك تحرمني منها وتخلّيني اجري ورا سراب ؟ ولَّا هُنْت عليك لدرجة إني أصبح مضرب المثل في الحب الغرام زي مجنون ليلى ؟!

القلوب يا ربي جعلتها بين أصبعين من أصابعك تقلبها كيف تشاء .. فاللهم ثبت قلبي على حبك، واهدني سبيل الرشاد..!

لم يفق "صلاح" إلا على صوت شيخه وهو يناديه :

. يا دكتور صلاح، ما قلتليش حاجة عن سفرك المفاجئ ولا عن رجوعك المفاجئ.

. يا شيخ طلبة أنا ما سافرتش للخارج ولا حاجة ولكن أنا كنت هنا في مصر.

. وليه بنتك سارة قالت لي بأنك خارج مصر؟

. لأنها فاكرة كدا .. هي ما تعرفش الحقيقة، أنا كدبت عليها، وسبت لها جواب أشرح لها فيه بأني سافرت خارج البلاد.

. وليه تكدب على بنتك ؟

. لظروف أحكيها لك بعدين، ولكن كل اللي عاوزه منك إنك ما تقلش لسارة إني جيت لك، أو إني لسّه في مصر علشان ما تضطرش تبحث عني، خليها فاكرة إني بره مصر لحد ما يأذن ربنا.

. زي ما إنت عاوز يا دكتور.. أنا مش هقول حاجة ، ولكن اوعدني إنك تزورني تاني..!!

. إن شاء الله قريب جدًا هأكون عندك بس في أي يوم غير الإثنين والخميس علشان سارة ما تشوفنيش.

. المهم إنك تيجي وأسمع صوتك اللي بيسعد قلبي ويرجّع لي الحياة من جديد.

. أشوف وشك بخير يا شيخ طلبه ..

. مع ألف سلامة يا دكتور صلاح .. وربنا يبارك لك في كل خطوة تخطيها.

ترك "صلاح" شيخه ومضى متوجهًا نحو الصحراء، وبعد أن جاوز حدود القاهرة توقف للحظات ليُلقي على المدينة نظرة وداع، فانهمرت من عينيه الدموع أسفاً لفراق الأحبة، ثم أطلق لسيارته العنان تنطلق به إلى المجهول، وإلى ما قدره الله له .

(٨)

ذات مساء حضر رجل الأعمال "محمود الراعي" صاحب شركة "الراعي" للاستيراد والتصدير، ومعه رجل أعمال آخر يبدو في الخمسينيات من عمره إلى مقر إقامة الدكتور "صلاح" في المزرعة ليسهرا معه وليتحدثا إليه عن بعض المشروعات الجديدة ، وليسألاه عن خططه المستقبلية، فبدأ الأستاذ "محمود" الحديث قائلاً:

. يا دكتور .. أقدّم لك صديق عمري الأستاذ "أحمد الغنيمي" رجل أعمال وعنده شركات للتصدير وأراضي مستصلحة.

قال الدكتور "صلاح" :

. تشرفنا يا أستاذ "أحمد" .

رد الأستاذ "أحمد" بابتسامة هادئة :

و أنا أيضا اتشرفت بمعرفتك يا دكتور "صلاح"، أنا سمعت عنك وعن أبحاثك العظيمة والأستاذ "محمود" كلمني عنك كتير لدرجة إني اتشوّقت لمعرفتك.

. شكرًا يا أستاذ أحمد على ذوقك، وشكرًا للأستاذ "محمود" اللي أنعم علي بالفضل دا وادّاني أكتر ما كنت أتمنى.

قال الأستاذ "محمود" في استحياء:

. يا دكتور صلاح ما تقلش الكلام دا .. إنت تستحق أكتر من كدا ، إنت سبب الخير اللي أنا فيه دي الوقت، و أنا مهما عملت مش هاقدر أرد لك جزء من جمايلك عليّ.

ردّ الدكتور صلاح، وهو ينظر في خجل إلى الأرض:

. على أي حال أهلًا وسهلًا بكم..ها أقوم أعمل شوية شاي في الخمسينة.

قال الأستاذ محمود:

. لا يا دكتور .. أنا هنادي على حد من الشباب يعمل لنا الشاي ، وخلّيك مع الأستاذ " أحمد" لأنه عاوز يتكلم معاك في موضوع خاص.

التفت الدكتور "صلاح" إلى الأستاذ "أحمد" وقال :

. أهلا بك يا أستاذ "أحمد" .

. أهلاً بك يا دكتور .. في الحقيقة أنا تابعت أبحاثك المنشورة في مجلات علمية في أوروبا، وعرفت إنك أصبحت مشهور هناك وخصوصًا في إنجلترا، ولما جيت لبلدي مصر والتقيت بصديقي "محمود" لاقيته بيكلمني عنك وعن إنجازاتك في الشركة، اترجّيته إنه يعرّفني بيك ، وهو مشكور لبّى طلبي وسعدت بمعرفتك.

. وأنا كمان سعيد بمعرفة حضرتك؛ لأني بحترم أي رجل أعمال يستثمر في بلدنا ويجيب عملة صعبة لبلدنا سواء بالصناعة أو الزراعة أو التجارة .

. أنا عندي يا دكتور مساحات كبيرة من الأراضي المستصلحة وعاوز أستغلها أفضل استغلال، أنا في الحقيقة كنت بعتمد على جهود بعض الفلاحين اللي كانوا بيزرعونها بطرق عشوائية، وعلشان ما كانش هناك اللي يتابعهم أو يشرف عليهم كانوا بيقصّروا في رعايتها وبهملوها لحد ما قلّت خصوبتها وأنا جاي مخصوص علشان أطلب منك إنك تشرف على أرضي وتاخد بالك منها، واللي حضرتك تطلبه أنا تحت أمرك فيه.

. يا سيدي الفاضل أنا عمري ما بصّيت للفلوس، أنا أجري الحقيقي إن أشوف نتيجة جهدي و أبحاثي بتتحقق قدام عيني على أرض الو اقع، هي دي سعادتي الحقيقية.

. أنا عارف يا دكتور إنك بتبذل جهدك كله علشان العلم وعلشان بلدك ، و أنا طمعان في كرمك إنّك تخلّي أرضي من ضمن اللي بتشمله رعايتك.

. مساحة أرضك كم فدان ؟

. ألف فدان.

. يااااه .. ربنا يزيد ويبارك، بس المساحة دي كبيرة عليّ وخصوصًا إني باشرف على أراضي تانية زي ما حضرتك شايف..!!

. لو عاوزني أجيب لك ناس تشرف عليهم من الشباب المتخرجين من كلية الزراعة ويكونوا تحت أمرك ويساعدوك في أبحاثك زيّ اللي عمله الأستاذ "محمود" إن شاء الله من الصبح يكونوا عندك.

. مادام الأمر دا في استطاعتك يبقى مفيش مشكلة عندي ، وأكون شاكر لحضرتك لأن هدفي من شغلي مش مجرد زيادة الإنتاج وتحقيق المكاسب المادية ، ولكن محاولة إيجاد وخلق فرص عمل لتشغيل شباب الخريجين اللي ماعادش عندهم أمل في الحياة/ وخصوصًا خريجي كلية الزراعة، والكلية دي للأسف الإقبال عليها بقى ضعيف في السنوات الأخيرة.

. و إيه هي المحاصيل اللي إنت ناوي تزرعها في أرضي يا دكتور ؟

. القمح والذرة والخضروات والفاكهة، هي دي المحاصيل اللي بلدنا محتاجة لها وخصوصاً القمح، أنا شاركت أستاذي العالم الجليل الدكتور "أحمد مستجير" رحمه الله في بعض تجاربه و أبحاثه في الهندسة الور اثية،

وكانت له نظريات ما اكتملتش و أنا نفسي تجيني الفرصة علشان أكمل مشواره العلمي بنفسي؛ لأنه كان له الفضل الكبير عليّ في توجيه مسار حياتي.

. ممكن أعرف إيه مجمل النظريات دي يا دكتور؟

. كانت فكرته قايمة على تلقيح نواة بذرة القمح بنواة بذرة الغاب أو البوص، لإنتاج سلالة قوية من القمح، وبالفعل نجحت تجربته، وشفت بعيني عود الغلة قد عود الغاب في التخانة والطول، لكنه ما وقفش عند فكرة تهجين القمح، و إنما أراد أن ينتج بذرة للقمح والرز تتحمل أعلى درجات الملوحة، علشان نقدر نستغلّ التربة المالحة والمساحات الموجودة في البراري والمستنقعات في شمال الدلتا، وكمان نقدر نستفيد من مياه البحيرات المالحة، وبكدا ما نعتمدش اعتماد كلي على مية النيل في الزراعة، ولأنه كان بيصرف على أبحاثه من ماله الخاص ما قدرش يكمل المشوار، ومات من قبل ما يشوف ثمرة تعبه.

رد الأستاذ محمود والأستاذ أحمد معا :

. واحنا معاك يا دكتور بفلوسنا وجهودنا لحدّ ما تحقق هدفك وفكرتك، إحنا كمان بنحب البلد دي زي ما انت بتحبها إنت والدكتور مستجير الله يرحمه.

. أشكركم على نيتكم وإخلاصكم وأرجو إنّ أكون عند حسن ظنكم بي، كل اللي يهمّني في الأمر ده إني أحقق الوعد الإلهي اللي ورد في القرآن، أو أكون واحد من اللي هيساهموا في تحقيقه.

نظر الأستاذ أحمد في دهشة وقال:

. الوعد الإلهي ؟ تقصد إيه يا دكتور ؟

.أقصد الوعد اللي ورد في القرآن، في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ في الآية الكريمة جيت بشارتين: البشارة الأولى: إن ربنا سبحانه وتعالى بيضاعف الحسنة أو الصدقة في سبيله لسبعميت ضعف لمن يشاء من عباده، والبشارة الثانية : الإشارة اللطيفة من ربنا بإن العلم هيتقدم ويتطور لدرجة إن عود الغلة هيشيل سبع سنابل ودا وعد من ربنا للبشر.

ليه ما نحققش الوعد دا بإدينا ونرجع للمسلمين وللعرب مجدهم وعزهم لما كانوا سادة العالم ، هنفضل لحد امتى عالة على أبحاث الدول الغربية ونستنّى منهم كل جديد؟!

قال الأستاذ " أحمد" والفرحة تنتشر على ملامح وجهه:

.على بركة الله يا دكتور، من بكره إن شاء الله هنزّل إعلان في الصحف أطلب فيه خريجين من كلية الزراعة.

رد "صلاح" :

.ومن كلية العلوم أيضا قسم كيمياء، وقسم بيولوجي .

. ومن كلية العلوم .. لكنك أنت اللي هتعمل لهم اختبارات علشان تنقّي منهم المجموعة المثالية المناسبة لك.

.على بركة الله .

قال الأستاذ "محمود":

.بشرط يا دكتور إن عملك الجديد ما يعطلكش عن عملك القديم ما تنساش إن احنا الأصل.

ضحك الدكتور وقال :

.كلٌّ يغني على ليلاه .

تعالت عندئذٍ ضحكات الثلاثة، و انطلق رجلا الأعمال، وبقي "صلاح" وحده يفكر في الأمر طويلا.

في سكون الليل زاره القلق، ودارت برأسه الوساوس، وعادت إلى ذاكرته صور الأمس البعيد والقريب، خصوصًا و أنه مقبل على مشروع جديد...لا يعرف مصاعبه، ولا يعلم عو اقبه، فهو يراه حلقة مجهولة من حلقات تلك السلسلة التي بدأت منذ أن لمست قدماه أرض الغربة، وشرع يمشي بإصرار وعناد في طريق مزروعة بالأشواك محفوفة بالمخاطر.. ما الذي فعله صلاح بنفسه ؟ ..أكان محقاً عندما و افق على هذا العمل الجديد ؟ أم إنه بهذه الطريقة يسلم نفسه للانتحار ؟ لقد ألقى بنفسه في دوامة أبدية، وهاوية ما لها من قرار.. من أين له الجهد والوقت الكافيين لكي يحقق تلك المعادلة الصعبة ؟!

لا .. بل إن ما اختاره عين الصواب، لقد جاءته الفرصة المناسبة لتحقيق حلمه الأكبر في أن يرى بلده وأمته الإسلامية تحقق الاكتفاء الذاتي من القمح من غير أن تمد يدها في صغارٍ إلى الآخرين تتسوّل منهم، أو تخضع لشروطهم من أجل الحصول على شحنة ملوثة أو تالفة، وحلمه الثاني أن يقترب في أبحاثه من تحقيق أعلى إنتاج للقمح ليصبح للباحثين وعلماء المسلمين في مجال الزراعة اليد الطولى، ويحرزون في هذا المجال قصب السبق، فضلا عن أن انشغاله الدائم في العمل يعد وسيلة من وسائل التعلّل والتصبُّر على ما ابتلي به من عشق قد برى جسده، ومزّق قلبه، وكاد أن يذهب عقله.

(٩)

قرر "صلاح" أن يذهب إلى شيخه ليطمئن عليه، ويطمئن من خلاله على أحوال أسرته قبل أن ينشغل أكثر، وتأخذه دوامة البحث، ويطحنه العمل، اختار يوم الأربعاء ليقوم برحلته فيه إلى القاهرة، وقال في نفسه هذا اليوم هو أنسب الأيام لي لأن غدا الخميس ستكون "سارة" عند الشيخ وسيبدأ عملي الجديد من بداية الأسبوع التالي.

جهّز سيارته ولبس الملابس الأزهرية التي يتنكر فيها، وهي عبارة عن جبة وقفطان وعمامة، ثم غير بعض الشيء في ملامح وجهه لتصبح هيئته هيئة رجل عجوز كيلا يتعرف عليه أحد.

انطلق بسيارته يسابق الريح، تظهر أمام عينيه صورة أخته "سناء" وصورة "سارة" وصورة شيخه "طلبة" وصورة أولاد صديقه المتوفى، كم اشتاق إليهم جميعًا ..!

في حوالي الثالثة بعد الظهر كان قد وصل إلى بيت شيخه، وكان قد ترك سيارته في مكان بعيد حتى لا تلفت الأنظار مثلما فعل في المرة السابقة، دخل على شيخه العجوز فسلم عليه، وانطلق كعادته إلى المطبخ ليطهو الطعام الذي اشتراه وهو في طريقه إلى بيت شيخه، ترك الطعام ينضج على نار هادئة وجلس بجوار شيخه يسأله عن أحوال أخته وعن سارة وصديقتها وكان في لهفة شديدة وهو يسأله، كأنما يستنشق أخبارهم .

وبينما هما جالسان يتحاوران إذ دق جرس الباب فالتفت "صلاح" في فزع نحو الباب، وقال لشيخه لا تفتح الباب حتى أعيد ترتيب ملابسي وهيئتي المتنكرة كيلا يعرفني أحد ، مازال الجرس يدق، انتهى صلاح من ضبط ملابسه وماكياجه ثم همس في أذن شيخه طالباً منه أن يفتح الباب،

فإذا بسارة وصديقتها يدخلان بسرعة، وفجأة انتبهتا لهذا الرجل الغريب فوقفتا على استحياء ورجعتا إلى الخلف ، قالت سارة في نبرة خجولة:

. انت معاك ضيوف يا جدي ؟

قال الشيخ "طلبة" :

. تعالي يا "سارة"، تعالي يا "سلمى" ..قرّبوا علشان أعرفكم بضيفي.

ظلت الفتاتان ثابتتان في مكانهما تتهيَّبان هذا الرجل الغريب، فقالت سارة وهي تتأمّل على استحياء وجه الغريب:

. مين الراجل دا يا جدِّي ؟

. دا الشيخ "منصور" صاحبي من زمان، ولما كنت في البلد كان بيزورني باستمرار، لكن لما والدك جابني هنا انقطعت صلتي به، لكنه فِضِل يدوّر ويسأل عني لحد ما عرف عنواني،وجه قوام يزورني .

. عمومًا أهلًا وسهلًا بضيفك يا جدي .

. لكنكِ يا سارة معادك انت وسلمى بكرة الخميس مش النهارده.. انتم جيتو ليه؟!!

. هو مجيينا يضايقك يا جدي ؟

. أبدًا يا بنتي إنتم تشرفوا في أي وقت لكني اتعودت أنك بتزوريني كل إثنين وخميس .

. معاك حق .. كان المفروض نجيلك بكره لكن عندنا ظروف بكره جايز تمنعني من المجي فقررت أن آجي النهارده أعمل اللي كنت هاعمله بكره.

. ربنا يبارك فيك يا بنتي، ولكن ايه هي الظروف اللي ممكن تمنعك عني؟

قالت في خجل :

. هايجينا ضيوف بكره .

. ضيوف .. ؟!! هو والدك مش مسافر؟

. أيوه .. لكن فيه شاب عاوز يتقدم لي علشان يخطبني، ومع إننا قلنا له إن والدي مسافر إلا أنه مُصِرّ على الارتباط بي.

. إزّاي يا بنتي ترتبطي بشخص من غير علم والدك، انتم بعتتم له جواب ولا كلمتوه في التليفون ؟!

. لا .. بابا ما سابش عنوانه، ومن ساعة ما سافر ما بعتش أي جواب ولا كلمنا في التليفون، كأنه مش عاوز إننا نعرف عنوانه.

. ما تقوليش الكلام دا يا دكتورة سارة إنت عارفة إن والدك وراه مشاغل كتير وحياته كلها أبحاث ودراسات وتجارب، لازم حاجة كبيرة شاغلاه.

. لدرجة إنه ينسانا يا جدي.

. ما تقوليش الكلام دا يا بنتي أنا عارف أبوك كويس، جايز يكون في مشكلة أو اتعرض لظروف أقوى منه.

التفتت إليه وقالت في انزعاج:

. بابا في محنة ؟!

. ما تخافيش يا دكنورة سارة أنا بقول احتمال، لكنك ما كلمتنيش عن الشاب اللي متقدم لك قبل كدا.

. في الحقيقة يا جدي أنا مش عارفاه .

. و لما انت ما تعرفيش حاجه عنه ازاي تو افقي بالخطوبة ؟

. أنا كنت هاستنى رأي بابا؛ لأني و اثقة في رأيه لأن عنده نظرة سليمة في الناس.

. لما انت منتظرة رأي والدك، أمّال زيارة بكرة لازمتها إيه ؟

. دي مجرد زيارة عائلية نسائية .. يعني أمه وأخواته البنات بس، والزيارة دي علشان التعارف، أما زيارة العريس هو والده للخطوبة مش هتحصل إلا بعد رجوع بابا من السفر.

. على بركة الله يا سارة، ربنا يوفقك دائمًا للخير ويرزقك بالزوج الصالح اللي تستاهليه.

. تسمح لي بقى أنا وصاحبتي سلمي نروح المطبخ علشان نخلّص شغلنا على طول ؟

. اتفضلي يا سارة.

دخلت سارة إلى المطبخ فوجدت الطعام الذي أعده الدكتور صلاح قد نضج، فنادت سارة على الشيخ "طلبة" متعجبة :

. جدي .. مين اللي دخل هنا قبلنا ؟ و ايه الطبيخ اللي على النار ده ؟

قال الشيخ في ابتسامة خفيفة:

. ما تشغليش بالك يا سارة .. الطبيخ دا ضيفي هو اللي عمله علشان ناكل سوا أنا وهو و انتم طبعا معانا، فلو كان مش عاجبكم ارموه في الزبالة .. أنا متأكد إنه ما بيعرفشي يطبخ .

. بالعكس يا جدي دا ريحة الأكل تجنن، يظهر إن ضيفك طباخ شاطر.

رد الضيف في حياء :

. شكرًا يا بنتي دا من ذوقك ربنا يسعدك.

استوقفت سارة نبرة صوت الضيف برهة، ثم تعمدت أن توجه إليه الكلام حتى تستمع إلى نبرة صوته ثانية، أحس "صلاح" بأنها تستدرجه في الحديث فغير في نبرة صوته، أنهت الفتاتان عملهما سريعًا واستأذنتا الشيخ والضيف في الخروج.

خرجت الفتاتان من بيت الشيخ طلبة، لكن "سارة" ساورها القلق من جهة هذا الضيف إنها تشعر شعورًا خفيًّا بأنها تعرفه، ثم إن رائحة الطعام تشبه نفس رائحة طعام أبيها لاسيما و أنه يضع بعض التوابل بنسب معينة تعطي رائحة شهية قد تعودت عليها، ثم نبرة الصوت التي تتغير في مجلس واحد ، كل هذه الأمور أثارت فضولها في ضرورة معرفة هذا الرجل .

اختبأت سارة هي وزميلتها إلى أن خرج الضيف، ظلت تتابعه إلى أن وصل إلى سيارته، يا للعجب إنها سيارة أبيها، لابد أن يكون هذا الرجل أباها، نادت عليه وهي تصرخ كأنما تستغيث به :

.بابا.. بابا، أنا سارة.. انت مش عارفني ؟

لكنه تظاهر بعدم السماع و انطلق بالسيارة بسرعة مذهلة تاركًا "سارة" و اقفة مكانها ذاهلة تبكي وتقول وهي منهارة :

.ليه كدا .. ليه بتهرب مني ..؟ أنا سارة بنتك، وحبيبتك، أنت غضبان مني ؟ أنا عملت إيه يزعّلك ؟!

احتضنتها سلمى ومازالت بها حتى هدأت ثورتها ، وعادت بها إلى البيت في سكون وصمت وذهول .

(١٠)

عاد "صلاح" في ظلام الليل إلى خلوته، استرجع شريط الذكريات، تذكّر سارة وهي تخبر شيخه بأن شخصًا يريد التقدم لخطبتها ..كم كان قلبه يتمزق، ولا يستطيع البوح بمشاعره، تذكرها وهي تصرخ منادية عليه تستغيث به لينقذها من الغرق في بحر الحياة وهو لا يلتفت إليها، ولا يعيرها سمعه، ولا يفتح لها قلبه، تُرى ماذا فعلت المسكينة حتى يقسو عليها كل هذه القسوة ؟! أماتت في صدره النخوة ؟! أم ضاعت في زحمة الحياة مروءته؟!

استسلم لأحزانه، وأطلق لعينيه العنان لتذرف كل ما خبَّأته من دموع لعلّها تشفي جراح قلبه، أو لعلها تذيب قسوته الحجرية إزاء أرقِّ مخلوقة في عالمه ودنياه.

دق جرس الهاتف، نظر إلى شاشته، فعلم أن المتصل به في هذه الساعة شقيقته "سناء"، فتح الخط ورد عليها :

.السلام عليكم.

ردت "سناء" بصوت امتلأ بنبرات الغضب والثورة :

.سلام ايه يا دكتور، ايه اللي انت عملته ده ؟

.عاوزه إيه يا سناء ؟

. عاوزه أعرف ايه اللي عملته في سارة يخليها جاية منهارة ومفطورة بالشكل دا ؟

.أنا ما عملتش حاجة.

.يا دكتور خليك صريح..أنت مش كنت عند الشيخ "طلبة" النهارده؟

.أيوه صحيح ..كنت موجود عند الشيخ طلبة.

. وطبعًا شفت سارة وعملت إنك ما تعرفهاش لكنها مش غبية عرفتك يا دكتور، وجريت وراك تنادي عليك .. ليه ما وقفتش وفسّرت لها سبب وجودك هنا؟!

. أنت عارفة السبب اللي أنا هربان عشانه، وعارفة إني ما أقدرش أقولها السبب الحقيقي لهروبي.

. حجتك ضعيفة يا دكتور، إنت كدبت على نفسك، و اتخيّلت أوهام وصدقتها، أنت دي الوقت بتهدم كل اللي بنيته في سنوات عمرك، ربّيت البنت على الصدق وبعدين تكدب عليها ، علّمتها الأمانة و إنت ناوي تخون الأمانة، علمتها الجرأة والشجاعة في الحق و انت بتهرب منها هروب العاجز الجبان .

. أنت بتظلميني يا "سناء"، أنت مش قادرة تحسي بيّا، ولا بالنار اللي قايدة جوّ ايا.

. و إيه اللي استفدته من الغربة ؟ ما فيش تغيير ..نفس الكلام اللي سمعته منك قبل ما تسافر بسمعه منك تاني، لو كانت الغربة مغيرتش فيك حاجة ارجع لنا، ارجع لبيتك وأهلك وناسك .. ارجع للخير اللي كنت بتعمله هنا..لأختك الضعيفة اللي مالهاش حد غيرك في الدنيا دي، الناس هنا عَمّالين يسألوا عليك .. ارجع لبنتك اللي انت كسرت قلبها وهي راقدة في سريرها ما بتتحركش لا عاوزة تقابل حد ولا راضية تخرج من البيت .. احنا محتاجين لك يا صلاح .. هو شغلك أهم عندك مننا ؟!

.و أقول إيه لسارة ؟

.قل لها أي حاجة انت مش هاتغلب .. حتى لو مقتنعتش مش مهم المهم إنك تكون في وسطنا .. سارة تعبانة وعاملة إضراب عن الأكل من ساعة ما شافتك و انت بتهرب منها ما فيش على لسانها إلا كلمة بابا انت فين؟ بتهرب مني ليه؟!!

.خلاص.. أنا جاي يا سناء بكرة إن شاء الله ، أول ما يطلع النهار هاكون عندكم.

.شكرًا يا دكتور ، واحنا هانكون في انتظارك.

.السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

.وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

أغلق الهاتف، وقام يرتب حاجاته ويعد حقيبة سفره ، وما هي إلا لحظات حتى داهمه صراع مرير من نوع جديد، صراع بين واجبه الأسري، وبين طموحه وأحلامه .

كيف يرمي بأحلامه وطموحاته ومستقبله وراء ظهره، ويتوجّه نحو أسرته ؟!

إن الفرصة لا تأتي الرجل مرتين، إنما هي مرة واحدة، وقد أتته الفرصة التي انتظرها طويلًا لتحقيق أحلامه وطموحاته الكبيرة، رجال أعمال يريدون أن يثبتوا له انتماءهم الحقيقي لبلادهم، ولديهم الإمكانات من الأرض والمال والرجال الذين يستطيع بهم تحقيق ما يتمناه.

كيف يترك هذه الفرصة وقد أصبح اسمه يتردد في المجلات العلمية وفى الساحات الفكرية في كل دول العالم بسبب مشروعه الصغير الذي حققه في مزرعة الراعي؟! فكيف به إذا حقق مشروعه الضخم بمساعدة الشركتين معا ؟!

أيترك هذا المجد الذي ينتظره، والآمال المعقودة عليه من أجل أسرة صغيرة تستطيع أن تدبر أمرها بدونه ؟! لنفرض أن المنية قد و افته ألا يستطيعون العيش بدونه ؟

لا .. بل الحق في أن يعود لأسرته ..لابد من العودة إلى الأسرة؛ لأن هذا المجد أو المشروع الذي يسعى له، ويقدم عليه قد يقوم به غيره، أما أسرته فلا أحد يستطيع أن يضطلع بالدور الذي يقوم به داخل أسرته، نعم .. للعلم رجال كثيرون، أما أسرته فليس لها سوى رجل واحد..!

فضلاً عن ذلك فإن البحث العلمي نوع من أنواع الجهاد الأصغر؛ لأنه صورة من صور إعداد القوة في الأمة، أما إعداد الأسرة وتربيتها فهو نوع من أنواع الجهاد الأكبر، إذ إن فيه مجاهدة للشيطان، ومجاهدة للنفس والهوى، وفيه كفالة لليتيم، وإعانة للمحتاج، ومساعدة للضعيف، وصبر على أذى الآخرين، وتربية نشء، إنه باختصار.. تربية أمة.

نعم .. لابد من العودة إلى الأسرة حتى لا يضيع كل ما غرسه في السنوات الماضية من قيم ومبادئ وأسس راسخة تنبع من الإسلام ذلك الدين القيم ..!!

وإن كان يخشى إحساسه الجديد تجاه سارة فليكن أكبر من الاستسلام له، فليكن قويًّا حتى يصرف هذا الشعور إلى ما يفيد لا إلى ما يضر، لابد أن ينسى هذا الشعور العارض الذي ينتابه، فليس هناك عاطفة أسمى من عاطفة الأبوة، وإذا كان هذا الشعور جارفًا لا يقدر على إبعاده، فهناك شيء اسمه العقل سمي بهذا الاسم لأنه يعقل العواطف ويلجمها حتى لا تطغى فتورد صاحبها موارد الهلاك.

كل هذا الصراع الداخلي دار في فكره قبل أن ينام، لكنه بعد أن اختار العودة إلى أسرته أحس بالسكينة، وراحة البال، وأخذ ينتظر طلوع الفجر كي ينطلق مع أول شعاع للشمس إلى أسرته الضعيفة التي هي في أمس الحاجة إليه .

(١١)

عاد صلاح إلى أسرته وقد أخفى في صدره حبه وغرامه بجميلة الجميلات "سارة"، وفضَّل حياة الشقاء والعذاب في قربها على حياة الهدوء والراحة في هجرها والبعد عنها، حاول أن يتظاهر بالقوة، وأن يتماسك على الأقل أمامها، وألا يستسلم لرياح الحب كيلا تقهره.

نسيت "سارة" مع عودة أبيها كل أحزانها، وشعرت بالقوة تدب في أوصالها، فنهضت من سريرها، و انطلقت تتحرك في البيت كالفراشة، وعادت البسمة الرقيقة تزين ثغرها العذب الجميل، وعاد الإشراق إلى وجهها الملائكي مرة ثانية بعد طول غياب، وعادت البهجة التي غابت عن البيت مدة خمسة أشهر تغرد في جنباته كما كانت تغرد من قبل.

عجبًا لك يا صلاح كأن في يديك عصًا سحرية، إذا نزلت أرضًا قاحلة تحولت إلى واحة خضراء، وإذا دخلت بيتًا كئيبًا حزينًا دبّت فيه الفرحة، ومشت فيه السعادة، وخفق بالأنس، ونبض بالحياة..!

عزم "صلاح" منذ عودته إلى أسرته على أن تكون مهمته الأساسية هي إسعاد الآخرين من حوله حتى لو جاءت هذه السعادة على حساب سعادته، إنه لم يعد يطمع في شيء من طيبات الدنيا، ولم يعد يتطلع إلى متاع من متاعها الزائل، وخاصة بعد أن بخلت عليه الدنيا بأفضل ما فيها، بات يتطلع إلى الآخرة، يرجو رحمة ربه، ويخاف عذابه، بات يشتاق إلى الجنة، ويصبو إلى الحور العين، ويمني نفسه برؤية ذي الجلال والإكرام.

ذات ليلة أقبلت أسرة "حسام" ذلك الشاب الذي يريد الزواج بسارة، كان البيت ينضح بالسعادة، ويشرق بالأمل، استقبل "صلاح" ضيوفه استقبالًا حافلًا بالمودة والتقدير، ورحَّب بهم أحسن ترحيب، والد العريس

رجل ممتلئ يبدو على ملامحه ومظهره أثر النعيم، فهو من أسرة ثرية ويعمل في السلك الدبلوماسي، و"حسام" قد أنهى تعليمه في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، ومرشح للعمل في وزارة الخارجية، ووالدته سيدة كريمة يبدو عليها هي الأخرى أثر النعيم لكنها تتصنع الكلام تصنُّعًا، ولديها قدر من الإحساس بالتعالي على الآخرين، وشقيقة العريس زميلة لسارة في كلية الطب.

قال والد العريس:

. يا دكتور "صلاح".. يشرفني إني أطلب إيد كريمتك "سارة" لابني سعادة السفير"حسام المراسي" .

قال الدكتور "صلاح":

. قبل ما نتكلم في التفاصيل عاوز أعرف منك يا حسام عرفت سارة منين؟!

قال حسام :

. في الحقيقة يا عمي أنا ما شفتش سارة غير مرتين، المرة الأولى لما جيت لأختي "نسرين" تطلب منها كشكول المحاضرات؛ لأن كان فيه محاضرات فاتتها في مرة كانت غايبة فيها عن الكلية، والمرة الثانية لما طلبت من أختي إنها ترشح لي عروسة، فرشّحت لي سارة فطلبت منها إن أشوفها مرة ثانية؛ لأني في المرة الأولى ما كنتش شوفتها كويس،وكانت المرة التانية في الكلية.

قال والد حسام:

. يا دكتور صلاح ابني "حسام" مؤدب ومتربي أحسن تربية، وبيراعي الأصول والتقاليد اللي اتربينا عليها، ومش من الشباب بتوع اليومين دول اللي عاوز يتسلّى.

قال صلاح:

. ربنا يبارك فيه .. على كل حال إحنا اتشرفنا بزيارتكم الكريمة، واللي فيه الخير يقدمه ربنا.. وطبعا مش هنلاقي لبنتنا أفضل من ابنكم حسام، بس إنتم عارفين إن أهم حاجة في الجواز رأي العروسة فياريت تدوني فرصة أتكلم معاها وأشوف رأيها.

قال والد العريس :

. تقدر تاخد رأي العروسة دي الوقت يا دكتور.

قال صلاح :

. وليه التسرع ؟! دا جواز، و أنا مش طالب غير أسبوع أتناقش فيه مع بنتي، وأعرف رأيها، وأرد عليكم، هو دا كتير عليَّ .. ؟!!

قال والد العريس :

. زي ما تحب، وبالمرة تسألوا علينا، لكن بارجع افكّرك مش هتلاقي عريس لبنتك أفضل من ابني "حسام".

. شرفتنا يا سعادة السفير..!

قالها صلاح وهب واقفًا من مجلسه، فقام الجميع وانصرف الضيوف على الفور.

قالت "سناء" لأخيها والغضب يبدو على ملامح وجهها :

. إيه اللي عملته دا يا صلاح ؟

قال صلاح :

. عملت اللي كان لازم يتعمل يا "سناء" ، إنت ما شوفتيش الغرور اللي ماليهم كأنهم لقطة وأمله بالنسبة لينا أنا بنتي مش رخيصة ولا فاتها قطر الجواز عشان أديها لأول واحد يخبط على بابي، ومن حقي إن آخد وقتي في التفكير والسؤال عنهم وعن ابنهم.

قالت سارة بلهجة الواثق:

. بابا معاه حق يا عمتي ، أنا لمحت في كلامهم التعالي والغرور، كإنهم كانوا فاكرين إننا هنركع لهم بمجرد ما نعرف مكانتهم الاجتماعية وظروفهم الاقتصادية.

رد "صلاح" :

. الله يبارك فيك يا سارة، ويزيدك من نعيمه يا بنتي، أنا ما رضيتش أديهم كلمة من أول مرة علشان يعرفوا قيمتك ويعرفوا إننا مش ما دلوقيين عليهم .. وبعدين أنا ما أعرفش عنهم حاجة ولازم أسأل عنهم .. وساعات المظاهر بتخدع يا بنتي، وممكن يكون في العريس صفات تتعبك بعد كدا .. ثم إنهم مش مكسب لنا، بالعكس إحنا اللي مكسب لهم .. والحكمة بتقول : في التأني السلامة وفي العجلة الندامة.

. عندك حق يا بابا .. أنا فخورة إني بنت حضرتك ، واللي عندها أب زيك لازم تفتخر وتعتز بنفسها، وتقول أنا المكسب لغيري.

. في الحقيقة يا سارة الأب اللي عنده بنت زيّك من حقه إنه يتباهى بها، ويحطّ الشروط اللي تناسبه.

. إن كان فيّ ميزة أو صفة كويسة فأنا جزء منك وتربيتك، إنت اللي صنعت سارة بكل ما فيها.

. لا يا سارة ..إنت صنعة ربنا سبحانه وتعالى اللي أتقن كل شيء، وأعطاك جمال الشكل والروح، وادّاك عقل واعي، وقلب طاهر، ولسان شاكر ورطب بذكر الله.

. على مهلك يا بابا اللي يسمعك يفكّرك بتتغزّل فيَّ.. يا ترى أنا في الحقيقة زي ما حضرتك بتقول ولّا القرد في عين أمه غزال ؟!

. يا بنتي إنت مش حاسّة بقيمة نفسك ولا مر ايتك متكسّرة؟! إنت فوق أي وصف.

. ما تخلنيش أتغرّبنفسي، لأني لو اتغرّبت مش هتقدرتكلمني..!!

. هتكبري عليَّ يا سارة ؟!

. بابا حضرتك بتقول إيه ؟ أنا بهذّر معاك .. دا أنا لو اتكبّرت على الدنيا هافضل بنتك الصغيرة، وخدّامتك، وقطتك اللي بتلاعبها.. إنت تعرف أنا كنت دايمًا خايفة من فكرة الجوازليه..؟!

. ليه يا سارة ؟

. لأنه هيبعدني عنك، ويفرق بيني وبينك، وأنا ما اتعوّدتش على فر اقك.

. يا سارة الجواز دا سنة الحياة، وشريعة ربنا، ولازم يجي اليوم اللي تسيبي فيه بيت أهلك وتروحي على بيتك الأصلي ومملكتك الخاصة اللي بتشكليها زي ما انت عاوزه.

. كان نفسي ألاقي واحد فيه كل الصفات اللي فيك النبل والكرم وحسن الخلق والعلم والعفو والتواضع كل الصفات اللي الرسول دعانا ليها شفتها متجسدة في حضرتك.

. بالراحة عليّ يا سارة.. أنت عاوز اني أتغرّ أنا كمان ؟ ولّا إنت بتجامليني ؟

. لا يا بابا .. أنا مش بجامل حضرتك .. دي الحقيقة و أقل من الحقيقة، لو تعرف مكانتك عندي هتعرف إني صادقة في كل كلمة؟!

. أنا عارف يا حبيبتي، لكن لازم عن الجوازعشان أفرح بأولادك قبل ما أموت.

انتابتها رعدة وقالت:

.بعد الشر..!!

.وهو الموت شر يا سارة ..؟! الموت حق علينا..

. صحيح بس الكلمة دي بترعبني..كفاية فقدت أمي، مش عاوزه أفقدك انت كمان.

. كان قصدي إنك تتجوزي عشان أطمّن عليك، وما تخافيش من الحياة الجديدة لأن في إديكِ إنك تخليها أجمل وأحسن من الحياة اللي كنت عايشاها هنا لو سمعت كلام جوزك، وراعيت ربنا فيه، وعمرت بيتك بالإيمان، وحَوَّطتِ عليه بالحب والحنان، وأخلصت لجوزك ولأهله أكتر ما بتخلصي لأهلك، ساعتها هتملكي قلبه وتتربعي على عرشه.

. الحمد لله إنه رزقني بأب زيّك.. لكن انت ما قلتليش موافق على العريس ولّا لأ ؟

.هو مش جاي يخطبني أنا ، دا جاي يخطبك انت .. والمفروض تقولي لي رأيك عشان أردّ عليهم.

.لكني واثقة في فراستك، ومحتاجة رأيك.

.في الحقيقة يا سارة الولد مستقبله كويس، وبعدين جاي من الباب لا لف ولا دار، وإذا كانوا متكبّرين شوية ما يضرّش، الرسول علمنا إزاي نتعامل مع النوعية دي، وتعامله ﷺ مع أبو سفيان يوم فتح مكة أحسن رسالة للمسلمين في كيفية التعامل مع النوعية اللي بتحب الفخر، ودا معناه إن فيه طباع في بعض الناس صعب تغييرها في يوم وليلة، فلو كانت دي طباعهم مش هنغرم حاجة طالما انت مقتنعة بحسام ، وبالحب واللسان الحلو تقدري تملكي وتغيري اللي عاوزاه يتغيّر.

.تفتكر ممكن يرجعوا تاني بعد ما حضرتك طردتهم بطريقة مهذبة ؟

.هيرجعوا يا سارة ، أنت لسه برضه مش و اثقة في قدراتك ؟!

.الحمد لله .

.ربنا يوفقك يا بنتي ويقدر لك الخير، ياللا على أوضتك واحلمي أحلام سعيدة.

قالت سارة وهي تبتسم:

.انت بتطردني ؟ عموما تصبح على خير، وتصبحي على خير يا عمتي .

رد الاثنان في صوت واحد :

.تصبحي على خير يا "سارة" .

(١٢)

اشتاق العصفور الطليق إلى عشه الهادئ بعد تعب طويل، وسعي وراء الرزق غير قليل، حنَّ إلى شجرته الكبيرة العالية، وجنته الهادئة، اشتاق إلى مكان الصبا فلجأ إليه بعد أن اطمأن على "سارة" التي أنهت دراستها في كلية الطب وعينت معيدة في نفس الكلية، وتمت خطبتها لحسام، الشاب الوسيم الذي عين في وزارة الخارجية.

شعر "صلاح" بأنه في حاجة إلى أن يرتمي في أحضان قريته، فما أحنها عليه، يريد أن يشكو إليها حزنه وهمّه، ويذرف بين يديها دموعه التي صعبت على الترويض والانقياد، أحس فجأة بأن قطار العمر قد جرى به سريعاً، وقطع مسافات بعيدة، ولم يتبق على نهاية الطريق سوى محطات قليلة، عَزَّتْ عليه نفسُه حين وجد بوادر الشيب قد ظهرت برأسه، فقال لنفسه والأسى يعتصره:

.ياااه على الزمن .. الزمن جري بسرعة، معقولة يا صلاح إنك وصلت الخامسة وأربعين ولسه ما دخلتش دنيا؟! انت دي الوقت بقيت كهل، يعني كلها عشرة خمستاشر سنة وتبقى راجل عجوز متلاقيش حد جنبك يساعدك ويحمي ضهرك، وياخد باله منك .. لا زوجة ولا ولد .. صحيح أنا ربيت سارة بس في الآخر مش بنتي..! والمثل بيقول: "يا مربَّي في غير وِلْدَك يا زارع في غير أرضك".

وحتى لو فكرت في الجواز مين اللي ترضى بواحد في سني، وإذا لقيت اللي تقبل أجيب منين الوقت اللي ألحق أربي فيه أولادي.. ؟!

يا خسارة السنين لما تعدي قدام عنيك وتطلع لك لسانها، والأيام لما تتسرسب من بين إيديك وانت مش قادر تمسكها ..إيه اللي أنا عملته في

نفسي؟! كان لازم أحط شروط صعبة لزوجة المستقبل؟! هو أنا كنت مين يعني؟! ليه ماتجوّزتش بطريقة تقليدية زي كل أصحابي ؟! كان زماني عندي ابني اللي من صلبي راجل يشد من عزمي ويحميني ويشيلني في كبري؟!

أنا عملت زيّ اللي بنى قصور من الوهم فوق الرمال..!!

ضيّعت أجمل سنين عمري في الأحلام.. وما جنيتش منها غير الحرمان..!!

سارة اللي ضيّعت عليها شبابي هتروح لواحد تاني، ومن حقها إنها ترجع لأهلها، يعني أصبحت غريب عنها من كل النواحي.

هتروح لبيت جوزها وهافضل في البيت لوحدي أنا وأختي .. يا ترى شكل البيت هيبقى إزّاي من بعدها ؟! دي كانت مالية عليّ البيت ومنوّراه..أكيد هيكون زي البيت المهجور..كل ركن فيه هتطاردني ذكرياتها الحلوة .. ضحكتها الصافية.. وعيونها السود اللي عمرها ما غابت عني.. يااااه ياسارة..!! كنت حلم جميل ما كنتش عاوز أصحى منه، لازم نرجع أنا وأختي للبلد.. نعيش في وسط أهلنا وأصحابنا وحبايبنا، نشم هوا نضيف، ونتمتع بالخضرة والهدوء ومنظر الميّه..!!

لازم أرجع بلدنا أدفن فيها حبي لسارة اللي انكتب عليه الموت من قبل ما يتولد.

لكن .. فيه أمانة كنت شايلها من أكتر من خمستاشر سنة، وجاء الوقت اللي أرد فيه الأمانة لأهلها، حق "سارة" في ميراث أبوها الحقيقي، لازم أرجّعهولها، وأدعي أهلها لفرحها عشان دا حقهم..لكن إزّاي أمهّد لها الحكاية دي؟!! إزاي أصدمها بالحقيقة المُرّة؟!!

يا ترى هتتحمل الصدمة ولا هتكون شديدة عليها؟

البنت الرقيقة دي هيكون ايه حالها لما تسمع المفاجأة بإني مش أبوها..؟!!

دي عاشت معايا عشرين سنة معتقدة إني أبوها، ورغم إني سميتها باسمها الحقيقي ما عرفتش الفرق كل اللي تعرفه إني صلاح وهي سارة صلاح لكن من عجايب القدر إن اسم أبوها الحقيقي كان صلاح هو كمان عشان كدا مالاحظتش الفرق، وكنت دايما بخبي عنها اسم أبويا وجدي.

يا ترى أديها اللي يخصّها في ورث أبوها على إنه هدية مني وأكتم عنها الخبر وأسيبها على اعتقادها؟ ولا أعرّفها الحقيقة قبل ما يصدمها حد بالحقيقة المرّة؟!!

أيوه .. لازم أصارحها بالحقيقة.. هي هتغضب مني شويّة بس أكيد هتسامحني لما تعرف اللي عملته علشانها..لكن لو عرفت الحقيقة من حد تاني غيري مش هاتسامحني وممكن تفقد الثقة في نفسها وفي كل اللي حواليها.

نادى على أخته "سناء" فأقبلت إليه، قال لها والحيرة تمزقه:

."سناء" .. إلحقيني يا أختي .

. مالك يا صلاح ؟ اوعى تقولي إن حبك لسارة رجع تاني وعاوز تفسخ خطوبتها.

.وهو حبي لها فارقني لحظة عشان يرجع لي تاني ؟!!

.رجعت تاني للكلام اللي وعدتني إنك تنساه ؟

.لا يا سناء، أنا بس عاوز آخد رأيك في مسألة معينة.

.و إيه هي المسألة اللي انت عاوز تاخد رأيي فيها ؟

. أنت عارفة إن سارة وصلت السن القانوني لفك الوصاية من أربع سنوات؟!

.أيوه عارفة...

. و أنا ما رضيتش أعرفها الحقيقة وأرد لها الورث إلا بعد ماتخلص تعليمها، وهي خلصت تعليمها واشتغلت معيدة في الكلية وجالها ابن الحلال وفي طريقها للجواز..مش شايفة إن آن الأوان اللي نعرفها فيه الحقيقة؟!

. أنا من رأيي إنك تكتم الخبر دا عنها وتدّيها ميراثها على إنه هدية منك لها وهبة كنت شايلها لليوم ده.

. أنت شايفة إن دا التصرف الصحيح ؟

. أيوه هو دا أسلم رأي لإننا مش عاوزين نجرح إحساسها، ولا نصدمها وهي داخلة على جوازودنيا جديدة.

. يشهد علي ربنا يا سناء يا أختي إني عمري ما مدّيت إيدي على فلوسها وأرضها كنت بأجّرها وحط الإيجار في حسابها الشخصي في بنك إسلامي.

. وهو فيه حد يقدر يشكك في نزاهتك يا دكتور ؟

. من بكره الصبح هروح للمحامي وأطلب منه يعرض البيت بتاعها والأرض للبيع..

وهنا توقف "صلاح" وشرد ذهنه لبرهة ثم واصل حديثه:

لكني لو حاولت أبيع الأرض أو البيت ممكن أعمامها يقفوا في وجهي، ويعملوا مشكلة وهنا تعرف سارة الموضوع.

. وهل من حقك كوصيّ أنك تبيع الأرض أو البيت بتاعها ؟!

وإذا كان من حقك فأنت دي الوقت اتفكّت وصايتك عليها، سارة عندها خمسة وعشرين سنة ومن حقها إنها تتصرف في أملاكها وأظن أعمامها عارفين كدا.

. إذن الحل إيه ؟ دبريني يا سناء.

. روح للمحامي و اتناقش معه في المسألة دي لحد ما توصلوا لحل يرضيك من غير ما تؤذي مشاعر سارة .

. إن شاء الله هاروح للمحامي عشان نلاقي طريقة لحل المشكلة دي..!!
اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلاً، و أنت إن شئت يا رب جعلت الحزن سهلا، اللهم يسر لي هذا الأمر، واهدني سبيل الرشاد.

(١٣)

في منزل سعادة السفير كل شيء مرتب ومنظم ، تستقبلك روائح الزهور المختلفة والمتناسقة منذ أن تعبر البوابة الخارجية إلى الداخل تمشي في ممر طويل بين شجيرات من أشجار الزينة ينتهي هذا الدهليز إلى فناء فسيح وسط الحديقة، أعدت فيه بعض الكراسي المصنوعة من الخيزران وبعض المقاعد الفاخرة والمتقنة الصنع والتي تحمل طابعًا عربيًّا أصيلًا ، يجلس سعادة السفير يتناول قهوته في الساعة الخامسة عصر كل يوم فوق مقعد من هذه المقاعد، ويبدو أنه قد جهز هذا المكان لاستقبال ضيوفه بعيدًا عن حجرات منزله، وهذا المكان لا يخلو من شاعرية هادئة خصوصًا قُبيل الغروب.

كان "صلاح" يتردد إلى بيت السفير في هذا الوقت منذ أن جمع بينهما النسب ليستمتع بجلسة هادئة وليتمتع بمنظر ساحر حيث الحديقة الواسعة التي نسقت أشجارها أفضل تنسيق ، وحيث منظر الماء الصافي الذي يعكس زرقة السماء فيبدو في لون الفيروز وذلك في حمام السباحة الموجود في هذه الحديقة البديعة.

ذات يوم جلس السفير وحده في نفس المكان لكن شيئًا ما يعكر صفوه، علامات الغضب والغيظ قد ارتسمت على أسارير وجهه، نادى على ابنه "حسام" بصوت جهوري ونبرات حادة تكشف عن تهديد ووعيد، أقبل "حسام" على الفور، وقف أمام أبيه ترتعد فرائصه كأنما ارتكب ذنباً كبيرًا، فقال الشاب باستعطاف:

.أمرك يا بابا .

قال الوالد بلهجة خبيثة ماكرة :

. إنت قلت لي إن اسم والد خطيبتك "صلاح"..

. أيوه.. اسمه الدكتور "صلاح" وأعتقد إنكم دي الوقت أصدقاء .

. فكّرني تاني اسمه صلاح إيه... ؟

. "صلاح الدمنهوري" يا بابا.

. هو دا اسمه الحقيقي ؟

. تقصد إيه حضرتك ؟

. قصدي.. أنت متأكد إن اسم والد سارة صلاح الدمنهوري ؟

. أيوه .. اسمها بالكامل "سارة صلاح مصطفى الدمنهوري"، ليه بتسأل السؤال دا ؟

. أبدًا كنت عاوز أتأكد من حاجة كدا .. و أبوها بيشتغل إيه؟

. أعتقد إنه قال لحضرتك إنه بيشتغل أستاذ في كلية الزراعة جامعة القاهرة.

. لا يا حسام يا ابني ، الناس دول كدابين وخدعونا.

. حضرتك بتقول إيه يا سعادة السفير؟

. أقول بأن أهل خطيبتك غشونا وكدبوا علينا .

. إزّاي ؟

. كنت النهارده في مصلحة جنب كلية الزراعة، قلت لنفسي أمر على الدكتور صلاح و أقعد معاه شويه، فدخلت الكلية، وسألت عن الدكتور "صلاح الدمنهوري" ، فلقيت إن مفيش حد يعرفه، فدخلت على عميد الكلية أسأله هل بين العاملين في الكلية حد اسمه الدكتور "صلاح الدمنهوري"، فأكد لي بأن الاسم دا مش موجود عندهم، واللي موجود عندهم الدكتور

"صلاح أحمد الهنساوي" وهذا ما أكده لي عميد الكلية من و اقع كشوف وسجلات العاملين وهيئة التدريس بالكلية .

كل اللي عاوزه منك تعرف السبب اللي خلّى والد سارة ينتحل اسم رجل تاني، أو ينتحل وظيفته، دا نسب بيرتبط بالإنسان بقية حياته، ويتمد لغاية الأحفاد، فإذا كان الراجل دا كداب نفسخ الخطوبة؛ لأن الكداب والنصّاب بيعلم أولاده الكدب والنصب والاحتيال واحنا مكانتنا الاجتماعية ما تسمحشي بكدا.

.أمرك يا بابا، هتأكّد من الموضوع ده الليلة، وإن كان الكلام دا صحيح أنا هافضّ العلاقة دي في الحال .

.هو دا اللي كنت منتظره منك يا حسام، ربنا يكرمك يا ابني ويحفظك لشبابك.

خرج "حسام" من بيته والدم يغلي في عروقه متوجها إلى بيت "سارة" بعد أن اتصل بها هاتفيا يخبرها بأنه قادم، إذ كان الدكتور صلاح قد اشترط عليه من قبل ألا يأتي إلى المنزل إلا بعد أن يتصل هاتفيًا يحدد موعدًا للزيارة ليكون الدكتور على علم وبينة من الأمر ويكون حاضراً ؛ لأن الخلوة غير مشروعة.

دقّ "حسام" الجرس بعنف، اتجه الدكتور إلى الباب وفتحه، رأى الشر في عيني "حسام" فسأله الدكتور "صلاح" في رفق :

.خير يا حسام ما لك متغير ومش زيّ عو ايدك؟ هو فيه حاجة؟!

قال حسام وهو يكاد يتميز من الغيظ :

.تسمح لي ببطاقتك يا دكتور ؟

.بطاقة إيه يا حسام ؟

.بطاقتك الشخصية، رقمك القومي، إثبات هويتك؟

تغيّروجه صلاح ونظر بحدّة إلى حسام وقال:

. إزَّاي تكلمني باللهجة دي يا ولد؟! إنت جرى لك حاجة؟! إنت مش عارف بتكلم مين؟

. عارف يا دكتور بكلّم مين .

أحسّ الدكتور صلاح بأن وراء هذه الزيارة أمرًا غير طبيعي فأشفق على سارة أن تسمع شيئاً يؤذيها، فطلب إليها أن تدخل حجرتها، تلكأت سارة حتى نهرها والدها بصوت أجش، ثم التفت إلى "حسام" وقال له:

. عاوز إيه يا حسام ؟

. عاوز أعرف أنت مين؟ وبتشتغل إيه بالظبط ؟

. أنا الدكتور "صلاح" ووظيفتي أستاذ بكلية الزراعة، دا يكفي ؟!

. لا .. أنا عاوز بالتفصيل.. اسمك الحقيقي، وشغلتك الحقيقية.

. أنت عارف اسمي كويس "صلاح الدمنهوري".

. مافيش حد في كلية الزراعة اسمه " صلاح الدمنهوري"، إيه رأيك بقى؟؟!!

. إنت بتتجسس عليّ يا حسام ؟! خلّي بالك دي قلة ذوق ..وأنت بالطريقة دي هتهدم كل حاجة.

. ما يهمنيش ..المهم عندي أن أتأكد من الوساوس اللي في دماغي.

. ياريتها وساوسك، إنما دي وساوس أبوك وأنت مجرد بغبغان بتردد اللي بتسمعه منه.

. ما تغيّرشي الكلام ..كل اللي عاوزه إن أشوف بطاقتك الشخصية وأعتقد أن دا من حقي.

. البطاقة أنا سايبها عند المحامي.

. خلاص نروح للمحامي نشوفها.

.بكره يا بني هروح للمحامي أجيبها منه.

.لا .. أنا مش هستنّى لبكره.. لازم أتأكد حالاً ، عشان لو كنت نصّاب نفضّها سيرة وكل واحد يروح لحاله.

خرجت سارة تجري نحو أبيها بعد أن سمعت الحوار الذي دار بين خطيبها وبين أبيها ، فصرخت في وجه خطيبها وقالت ودموعها تتحدر على خديها:

.بابا عمره ما كان نصّاب ولا كدّاب.. اطرده يا بابا إزاي تسمح له يهينك ويقل أدبه عليك بالشكل دا؟!!

قال "حسام" :

.أنا مش هستنّى لحد ما يطردني أبوك، أنا ماشي لوحدي و أنا في غاية السعادة لأن ربنا كشفكم لي قبل ما يتم الجواز، لكن بنصحك إنك تسأليه وتعرفي منه هو مين وبيشتغل إيه ؟ وهل إنت بنته فعلاً ولا لأ، الراجل دا مكير وله ألف وش.

صرخت سارة في وجه "حسام" :

.اخرج .. اخرج يا مجرم ، إن جيت البيت دا تاني أنا هقطع رجلك.

خرج "حسام "من بيت الدكتور، التفتت سارة إلى أبيها وعمتها فوجدتهما يبكيان، قالت سارة:

. مالك يا بابا ؟.. مالك يا عمتي ؟! إنتم زعلانين عشان الخطوبة اتفشكلت؟! دا خير وبركة دا أنا كنت عاصرة على نفسي لمونة وقبلاه علشان خاطركم .. الحمد لله اللي نجاني منه ومن غروره وقلة أدبه .. بس اللي محيرني إنت ليه ما طلّعتش له البطاقة بتاعتك علشان يتأكد إن احنا مش كدّابين ؟!!

.قلت له بطاقتي مع المحامي ما صدقنيش .

.وبطاقة حضرتك بتعمل إيه عند المحامي؟!

.كنت بسجّل بعض الأوراق عشان أحصل على براءة اختراع لبحث من أبحاثي ونسيتها عند المحامي.

. أرجوك يا بابا تروح للمحامي وتجيب البطاقة بتاعتك عشان تحطها في عنيه، ويعرف قيمتك ومكانتك.

. ما يهمنيش يا سارة أن يعرفوا عني حاجة، لكن اللي مزعّلني إن أكون السبب في انفصالك عن خطيبك.

. ما تشغلش بالك، رب ضارة نافعة.. "حسام" ما كانش الشخص المناسب لي، لكني و افقت عليه إرضاءً لك ولعمتي.

. لا يا سارة، معقول إنك تفكري بالطريقة دي ؟! أنت والحمد لله بتتمتعي بعقل ناضج، وفراسة عالية، وشخصية قوية، ما ينفعش تو افقي على إنسان بمجرد أن أبوك اختاره لك، وما تخلّيش حيائك يمنعك من إنك تقولي رأيك بصراحة وخصوصًا في موضوع الجواز، لأن هي دي حياتك اللي بتعيشيها باختيارك .. الواحد مننا يا سارة بيعيش حياته على مرحلتين، المرحلة الأولي اللي بيعيشها في بيت أمه و أبيه، والحياة دي بيكون مجبر فيها لأنه ما بيختارش أمه ولا أبوه، أما الحياة الزوجية فباختياره لأنه هو الذي يختار شريك حياته.

.فعلاً يا بابا، وأشكرك على النصيحة الغالية دي.

.بتشكريني على إيه يا سارة ؟! دا واجبي يا بنتي..

.بابا .. يا ريت بعد اللي حصل النهارده تخرج تشم هوا وتهدي أعصابك.

. معاك حق يا "سارة" أنا فعلًا محتاج أغيّر جو بعد القلق اللي حصل دا ، هروح قهوة الجندول على النيل أقعد مع حد من أصحابي و أنسى اللي حصل النهارده.

(١٤)

خرج الدكتور من البيت متجهاً إلى "مقهى الجندول" وهي إحدى المقاهي المطلة على نهر النيل، كان قد تعود على الذهاب إليها كلما أحس بالحنين إلى الماضي، وكلما هجمت على صدره هموم الواقع المر، معظم المترددين على هذا المقهى من الطبقة المثقفة والتي أصبحت مهمشة بعد أن تحول المجتمع في ظل الرأسمالية إلى طبقتين: طبقة أرستقراطية تموت من شدة التخمة، وطبقة معدومة تبحث عن رغيف الخبز في صناديق القمامة، أصبحت الطبقة الأولى منهومة بجمع المال، والثانية مهمومة بالبحث عن لقمة العيش، وضاعت بينهما تلك الطبقة الوسطى التي كانت تقود المجتمع في الزمن الجميل، وتحافظ على بقائه واستقراره.

في هذا المقهى كان الدكتور "صلاح" قد تعرف على صديق شاعر وأديب بارع يدعى "عبد الرحمن" هو شخص مغمور لكنه يكتب الشعر والرواية بأسلوب رائق عذب جميل، ويختار القضايا التي تخدم أمته ويعرضها بأسلوب مهذب لا يخدش الحياء ولا يهين الكرامة الإنسانية، بل يجعل القارئ في سعادة روحية متصلة، وتحليق دائم بمشاعره وأحاسيسه في عالم ساحر جميل يأخذ بالألباب، ويطهر النفوس البشرية من أدران الشهوات العاجلة، والملذات الفاجرة.

أعجب "صلاح" بطريقة "عبد الرحمن" في الكتابة، وباختياره لموضوعاته الهادفة، وأكثر ما جذبه إليه أنه يختلف عن الشعراء والأدباء الذين يعربدون في الشعر وفي الأدب باسم الحداثة والتنوير، أولئك الشعراء الذين كانوا السبب الأول والرئيس في انصراف المجتمع عن الأدب بصفة عامة، والشعر بصفة خاصة بسبب الغموض الذي يسيطر على شعرهم

وأدبهم، وبسبب الإسفاف والابتذال في عرض الأفكار والقضايا الشاذة التي لا تناسب مجتمعاتنا، ولا تتواءم مع ثوابتنا وقيمنا.

كل منهما وجد في الآخر بغيته، وكما قال رسول الله ﷺ :"الأرواحُ جنودٌ مُجَنَّدةٌ فما تعارفَ منها ائتلفَ، وما تناكرَ منها اختلفَ "، ارتبطت روحاهما بعرىً وثيقة لدرجة أن أحدهما إذا حدث له أمر مؤلم أحس الآخر على الفور بما أصاب صاحبه، فيفزع له وتتحرك أشواقه إلى لقياه، ولا يهدأ له بال حتى يطمئن على صاحبه.

لم يكد صلاح يعتدل في جلسته حتى وجد صديقه الأديب "عبد الرحمن" مقبلًا نحوه، وعلى وجهه ارتسمت ابتسامة ناعمة كأنما يريد أن يقول له ها أنذا شعرت بوجودك هنا، فأقبلت لأراك وأجالسك.. بادله صلاح الابتسام، وتعانق الصديقان، وجلسا إلى منضدة تنعكس صورتها في صفحة ماء النيل، قال "صلاح" لصديقه:

.تصدق إنك كنت على بالي دي الوقت ؟!

قال "عبد الرحمن" :

.دي الوقت بس ؟!

.في الحقيقة أنت دائماً في بالي، بس الساعة دي اتمنيت أشوفك.

. لازم فيه حاجة كبيرة شاغلاك، أنا شايف في عينيك حزن وهَمّ ، ورغبة إنك تفضفض بهمومك لإنسان بتثق فيه.

ابتسم صلاح له وقال مداعبًا:

.وإنت فاكر إني لما أفكّر أفضفض لحد هختارك إنت؟

.طبعًا أنا الشخص المناسب .. وعشان كدا جيت على بالك.

.أنت مخدوع يا صاحبي.

. لا .. إنت عارف إني بقدر أقرا أفكارك، ومن عنيك أقدر أقول لك كل أسرارك.

ضحك صلاح وقال:

. حكيم روحاني حضرتك؟ طيب إنت شايف إيه في عنيا ؟

. شايف فيهم سر كبير خبيته عن كل الناس لحد ما تعبت من كتمانه، ومش قادر تتحمله لوحدك.

. تعبت يا عبد الرحمن .. ما تعودتش أشكي حالي لحد غير ربنا.

. ونعم بالله .. بس ربنا خلّى ناس تفك كرب ناس، كانوا يعرفوا منين لو ما سمعوش شكواهم ؟! ما تخافش يا دكتور سرك في بير.. يمكن ربنا ساقني ليك عشان أشيل عنك همك اشكي، وفضفض عشان يرتاح قلبك من اللي شايله.

. من عشرين سنة استلمت وظيفتي مهندس زراعي في بلدنا، كنت فاكر إني خلاص بالوظيفة دي بقيت فارس أحلام كل البنات، رحت أخطب واحدة لقيتها لا تفقه شيء عن أي شيء كل تفكيرها في الأكل والشرب وخلاص، سيبتها ورحت لواحدة تانية أنا وأختي لكن لقيتها جريئة زيادة عن اللزوم، وطبعًا زي ما إنت عارف زينة المرأة حياءها، ورحت لغيرها وغيرها من غير فايدة بعضهم رفضوني لأني في نظرهم راجل كلاسيكي معقّد، مش روش زي ما واحدة منهم قالت لي، وبعضهم أنا رفضته لأني مالقيتش فيهم الصورة النموذجية اللي في خيالي.

سألت أختي ساعتها:

. هو الخلل فين؟ هل العيب في تربية البنات دي ولّا العيب فيّ شخصيًّا وفي تفكيري القديم ؟

ضحكت وقالت :

. عمرك ما هتتجوز إلا بطريقة واحدة من اتنين : إما إنك تغيّر نفسك وتساير عصرك ومجتمعك، وإما إنك تجيب بنت صغيرة تربيها على إيديك تزرع فيها كل المبادئ والعادات اللي انت عاوزها وبتؤمن بها، وتعوّدها على كل حاجة إنت اتعودت عليها وبعدين تتجوزها.

طبعًا هي قالت الكلام دا على سبيل الدعابة، ففهمت أنا من كلامها إن موضوع جوازي أصبح مستحيل، أولًا: لأني ما عنديش استعداد أغيّر مبادئي ولا أخلاقي علشان الجواز اللي هو وسيلة مش غاية، وثانياً: فكرة إني أجيب بنت وأربيها على مبادئي بعيدة عن الو اقع؛ لأن عشان أجيب بنت من الملجأ وأربيها صعبة شوية وخصوصًا إني مش متجوز، وعلى فرض إن الملجأ يو افق البنت دي هتحمل صفات ور اثية عن أبوها وأمها اللي في الغالب رموها في الطريق وماكانش عندهم رحمة.. المهم فوضت أمري لله وقلت أسلك طريق العلم، وكمّل دراستي وواصل أبحاثي اللي أخدم بها بلدي.

وفي يوم خرجت من البيت طالع على محطة القطر عشان أسافر للقاهرة أقدّم أوراقي في كلية الزراعة لاستكمال دراساتي العليا، لقيت عربية ملاكي على الطريق الزراعي اللي في أول البلد لابسة في شجرة كبيرة من شجر الكافور اللي مزروع على جانب الطريق جريت ناحية العربية وماكانش حد موجود في الطريق لقيت رجل ومر اته داخل العربية حسست عليهم لاقيتهم ميتين.

سمعت صوت طفل بيعيط كسرت الإزاز الور اني بتاع العربية علشان أقدر أسحب الطفل من العربية كانت البيبان مكلبشة سحبت الطفل لقيتها بنت جميلة عندها تقريبا أربع سنين، ولقيت في جسمها خدوش وكدمات خفت عليها من الموت جريت بها على المستشفى في المدينة علشان أنقذها،

ومن هناك اتصلت بأختي سناء عشان تيجي تاخد بالها وتقعد معاها لحد ما نطمن عليها ونشوف مين أهلها، وبعدين سيبت سناء معاها ورحت أقدم أوراقي للكلية، وفضلت أتردد عليها في وقت فراغي لحد ما ربنا تمم شفاءها، رجعت أسأل عن العربية اللي عاملة حادثة إيه مصيرها ومصير الناس اللي فيها عرفت إن الشرطة حررت محضر بالحادثة وسلمت الجثتين لأهاليهم، والعجيب إن أهل القتيل ماسألوش عن البنت ولا بلّغوا عن اختفاءها.

عرضت الأمر على سناء أختي ، وطلبت منها نروح الشرطة نسلم البنت وهم يقوموا بدورهم ويسلموها لأهلها، لكن "سناء" كان لها رأي تاني، كانت اتعلقت بالطفلة لأن ربنا ما رزقهاش بأولاد، وقالت لي إن مصير البنت هيكون الملجأ؛ لأن أهلها ما بلّغوش عن اختفائها، وأكيد هيرفضوا استلامها، ومن هنا النيابة تطلّع تصريح بوضع الطفلة في الملجأ.

فكرت أنا وسناء في حل نموذجي للمشكلة دي، اتوصّلنا إلى إننا نروح لأهل الطفل بنفسنا ونسلمها لهم بإدينا، بحثنا كتير لغاية ما وصلنا أخيرًا لعنوان أهلها عن طريق الشرطة، وعرفت إن لها عمين، أخدت الطفلة ورحت لاعمامها الاتنين في بلدهم لكني شفت منهم العجب، ما كنتش أتوقّع منهم إن ينكروا صلتهم بالبنت، وقالوا إن أخوهم ما كانش بيخلّف، وإن الدكاترة قالوا له مستحيل تخلّف، حسّيت من كلامهم إنهم طمعانين في الورث بتاع أخوهم الطبيب اللي كان بيشتغل في دول الخليج أكتر من عشر سنوات، كوّن خلالها ثروة محترمة، وكان عنده فيلا خاصة، وأراضي زراعية حوالي خمسين فدان، كان بيأجّرها للفلاحين، والسيارة الخاصة اللي اتحطمت في الحادثة، وبعض الودائع في البنك.

كل الثروة دي خلّت إخوته ينكروا صلتهم ببنت أخوهم بعد ما عرفوا إنها تورث لوحدها نص الثروة، واللي شجعهم على كدا إن البنت مالهاش غير خال واحد وعايش في أمريكا.

رجعت من عند الناس القاسية دي أتعجّب من الدنيا ومن الطمع اللي عمى قلوب الناس ، أخدت عهد على نفسي إن أربّي البنت أحسن تربية، وأعلمها أفضل تعليم، وأدخل معركة في المحاكم ضدهم علشان أثبت نسبها وأطالب بحقها في ورث أبوها، عرفت من بعض الناس إن خالها جاي زيارة من أمريكا، رحت له البيت وعرضت عليه المشكلة وطلبت مساعدته، رحنا السجل المدني وطلعت شهادة ميلاد للبنت وشهد في المحكمة لصالحي، وصدر الحكم بإثبات النسب، بعدها خالها طلب مني إن يأخذها معاه لأمريكا لكني اترجّيته إنه يسيبها معانا لأن أختي بقت متعلقة بيها بشكل غير عادي كأنها بنتها الحقيقية، و اتنازل مشكوراً لنا عن الوصاية بعد ما اتأكّد من صدق نيتي ورغبتي في حمايتها، ومن اللحظة دي أصبحت وصي على "سارة" أرعاها كأنها بنتي، وأحفظ لها حقوقها من غير ما أمد إيدي على جنيه واحد من فلوسها اللي أصبحت في مجلس حسبي لحد ما تكبر.

ما كنتش أعرف إن وجود "سارة" في بيتي هيكون سلاح ذو حدَّين،كانت النور اللي بنشوف به، والبسمة اللي بتسعدنا، والرحمة اللي بترقق قلوبنا، والأمل اللي بنشوف فيه مستقبلنا، لكنها بعد ما كبرت لقيت قلبي بيدق لها دقات غير اللي كان بيدقها قبل كدا .. شُفْت فيها اللي ما كنتش شايفه في أي بنت قبل كدا ، لقيت نفسي بتكهرب لما تلمسني و أبقى مكسوف لما عينها تيجي في عيني ، حسيت إن حبها اتغلغل في كل حتة في جسمي حاولت أهرب منها لكن من غير فايدة، حسيت إن حبها بيطاردني في كل مكان، حاولت أسيطر على الإحساس ده لقيته أكبر من قدرتي عليه.

جيت على نفسي وقلت لازم أضحّي، وو افقت على خطوبتها لشاب بيشتغل في وزارة الخارجية، لكن والده راح الكلية وسأل عني، فعرف اسمي الحقيقي اللي خبّيته عن "سارة"، كان والدها الحقيقي اسمه "صلاح مصطفى الدمنهوري" و أنا زي ما إنت عارف اسمي "صلاح أحمد البهنساوي"، فوالد خطيبها شاف إنه قدام أحد الاحتمالين: إما إن أكون "صلاح البهنساوي"، وفي الحالة دي ابقى مش والد سارة، وهنا هيكون قدام سؤال تاني: فين أبوها الحقيقي؟ وإما إن أكون "صلاح الدمنهوري" وفي الحالة دي أكون منتحل وظيفة شخص تاني و أبقى نصاب ومزوّر، وعشان كدا بعت ابنه يتأكد من بطاقتي الشخصية، والكارثة إن الحوار تم قدّام سارة .. مش عارف أعمل إيه ؟!!

أعرّفها الحقيقة ؟!.. خايف لو عرفت الحقيقة تنهار، ويحصل لها حاجة..!!

نظر إليه صديقه "عبد الرحمن" نظرة طويلة فاحصة ثم قال :

.كإني قدّام أسطورة "بجماليون" بترجع تاني بشكل جديد.

.أرجوك يا صاحبي بلاش الأوهام الفلسفية دي وقل لي رأيك إيه؟!

.فعلًا حكايتك تشبه حكاية "بجماليون"، وكنا متصورين إنها اسطورة خيالية لكنها بتطبق على أرض الو اقع قدّام عيني ؟

.إن كنت تقصد إن شخصيتي تشبه شخصية "بجماليون" تبقى واهم.

. لا يا صلاح يا أخويا.. أنت "بجماليون" بشحمه ولحمه، هو نحت تمثال جميل لواحدة جميلة من صنع خياله فيها البراءة والطهر والعفة اللي كان مفتقدهم في البيئة اللي كان عايشها ، لكنه اتعلّق بالتمثال وحبه لدرجة الجنون، ونسي إنه من صنع إيده وخياله، إنت عملت زيه تماماً، ربيتها وشكّلتها زي ما إنت عاوز وبعدين عشقتها..!!

. أنا ما صنعتش سارة ،هي صنعة ربّانية، و أنا ماليش فضل في جمالها، ولا رقتها، ولا رهافتها، ولا طلاقتها، ولا صوتها العذب، ولا روحها المرحة، ولا نفسها العزيزة، إيه الغريب في إن أحبها وأتمناها زوجة لي؟! ثم إن "بجماليون" كسّر التمثال اللي أغواه، أما أنا فضّلت إنّ أحطّم نفسي في سبيل سعادتها.

. تعرف يا صلاح إنت أشعلت قريحتي بحكايتك دي، وحاسس إني محتاج أكتب، هتكون حكايتك مع سارة أساس رو ايتي الجديدة، أشكرك يا دكتور "صلاح"، كنت عمّال أدوّر على فكرة جديدة بقالي مدّة، وقلت خلاص القريحة نشفت وجفت، لكنك أوحيت لي بفكرة روعة، كأنك نفخت الروح في قريحتي، أحيتها من جديد.

. يعني إنت بتصطاد في المَيّه العِكْرة ، ياريتني ما حكيت لك حكايتي ، كنت فاكر إنك صديق بجد وهتساعدني إني ألاقي الحل للمشكلة ألاقيك بتنتهز الفرصة وتدوّر على مصلحتك، ما كنتش فاكر إنك بالأنانية دي..!!

. كفاية يا دكتور "صلاح" .. أنا مش سيئ للدرجة دي.. أنا أديب، والأدب مر اية بتعكس الو اقع، وقصتك لسه فكرة في دماغي، فلو رفضت إني أعملها رو اية هاسمع كلامك لأن دا حقك..!!

. لكني ما سمعتش ر أيك كأديب في اللي لازم أعمله مع سارة.

. أنا شايف إنك تصارحها بكل شيء حتى بحبك اللي كتمته في قلبك.

. أكيد بتهذّر..!!

. لأ يا دكتور أنا بتكلم بجد .. ارجع لبيتك ، واحكي لسارة الحكاية اللي حكيتهالي كلها، وأعتقد إن ما فيش حاجة تدينك أو تشوّه صورتك في اللي حكيته، الجرأة والشجاعة ساعات بتبقى مطلوبة وضرورية، ودا وقتها، ومهما كلفك الأمر من تضحيات لابد من المواجهة والمصارحة.

. أشكرك يا شاعرنا العظيم على النصيحة الغالية.

. أنا اللي بشكرك لأنك أعطيتني ثقتك ، وما بُحْتش بسرّك لحد غيري، وطبعًا دا شرف لي، لكني لسه طمعان في كرمك، وأرجو إنك تسمحي لي بكتابة قصتك لأنها فكرة جديدة.

. طبعا دا يسعدني ويشرّفني إنك تكتبها بأسلوبك الجميل لكن ياريت تستنّى لما تشوف نهايتها على أرض الو اقع ، جايز الأيام تكون مخبية أحداث أكثر سخونة وتشويق.

افترق الصديقان، وعاد الدكتور إلى بيته، فوجد سارة ثائرة غاضبة، وشقيقته "سناء" جالسة على كرسي منكسة الرأس لا تنطق بكلمة، تطلعت سارة إلى الدكتور "صلاح " باندهاش غريب وقالت:

. ليه يا دكتور .. خدعتني السنين دي كلها؟!

نظر إليها الدكتور نظرة تعجب وحيرة ، وقال :

. خداع إيه اللي بتتكلمي عليه يا "سارة" ؟

. أنت عارف أنا بتكلم عن إيه يا دكتور.

نظر إلى أخته كأنما يسألها بعينيه، ثم وجه خطابه بهدوء إلى سارة وقال:

. إنت خرجت من البيت بعد ما أنا خرجت ؟

. أيوه خرجت .. هو الخروج بقى جريمة يا دكتور ؟ خرجت علشان أعرف الحقيقة اللي أخفيتها عني عشرين سنة.

. ورحت فين ؟

. رحت للمحامي علشان أجيب بطاقتك من عنده وهناك عرفت كل شيء إنت خبيته عني.

. ليه هو المحامي قال لك إيه ؟

. قال إني مش بنتك، وبأن أبويا الحقيقي كان اسمه "صلاح الدمنهوري"، أما أنت اسمك اللي خبيته عني طول السنين اللي فاتت "صلاح البهنساوي" ليه خدعتني طول المدة دي؟ ليه عاملتني كلعبة في إيديك ؟ هو أنا مش إنسانة ولي رأي وإحساس؟! أنت حطمتني .

.أبدًا يا سارة .. إنت مش عارفة الحقيقة.

. حقيقة إيه اللي عاوزين تحشوها تاني في دماغي؟!! أنا خلاص ماعادش عندي ثقة في أي حد، كله طلع وهم وخيال وكذب، مش قادرة أعرف الصح فين، ولا قادرة أميز بين الصدق والكدب، أبويا اللي علمني الصدق والأمانة يطلع في الآخر دكتور في الخداع؟!!

احمر وجهه وجحظت عيناه وقال في حدة:

.سارة، احترمي نفسك واعرفي بتكلمي مين؟ أنا اللي أنقذتك من الموت وانت طفلة صغيرة لا حول لك ولا قوة، وحميتك من أهلك اللي كانوا طمعانين في ورث أبوك .. لولاي كان زمانك مقتولة بإديهم، ولا مرميّة في ملجأ من الملاجئ، ربيتك أحسن تربية، حرمت نفسي أنا وأختي من كل متع الدنيا علشان أوفّر لك حياة كريمة،كنت أب وأم لك، وعمري ما قصّرت في تربيتك، علمتك مبادئ الدين علشان تقدري تحمي نفسك، ونشّأتك على حب الأدب والشعر علشان ذوقك وإحساسك يكونوا راقيين، ودخلتك كلية الطب وصرفت عليك من غير ما أمدّ إيدي على قرش واحد من فلوسك، حاربت أعمامك وجبت لك حقك من حنك الأسد، هل كنت مجرم في كل اللي عملته علشانك ؟!

لو كانت نيتي وحشة كنت استوليت على فلوسك وأنا وصي عليك وقلت اتصرفوا في تربيتك، ولو كنت مجرم كنت سيبتك في العربية لحد ما تموتي؛ لأن الطريق كان مقطوع ما كانش فيه حد موجود علشان ينقذك،

أوكنت سيبتك لأهلك يخلصوا منك بمعرفتهم، أو يأكلوا حقك ويرموك في أي مكان..!!

أنا يا سارة شفت الويل علشان أثبت لك حقوقك الشرعية.. ورغم دا كله ما صرفتش جنيه واحد من فلوسك، كل جنيه يخصك كنت بحطّه في حسابك البنكي، وجهّزت لك الحجج والأوراق اللي تخليك تستلمي حقك من غير ما حد ينازعك ، وكنت ناوي أسلمها لك بكره ، وحاولت أقولك الحقيقة أكتر من مرة لكن شجاعتي كانت بتخونّي و أقول لنفسي لما تخلّص دراستها.

بعد اللي عملته دا كله وجايه تنفعلي عليَّ، وتوصفيني بإني مخادع وكذاب ؟! لا يا سارة، ما كانش دا العشم فيك، أنا كل اللي عملته معاك ما كنتش قاصد به غير رضا ربنا، ولأن إنسانيّتي بتحتّم عليّ الواجب ده.

انهمرت الدموع من عيني "صلاح"، حاول أن يتمالك نفسه، لكن الحزن طغى عليه فخرج من البيت حزينًا يجر ساقيه المتثاقلتين المجهدتين ، خيم الصمت على البيت كأنما نعقت به البوم والغربان، نظرت "سارة" إلى "سناء" وقالت :

.صحيح يا عمتي اللي بابا قاله ؟ ولّا أنا في الحقيقة مجرد لقيطة ؟

التفتت إليها سناء ونظرت إليها في عطف وحنان وقالت :

.لا يا سارة ياحبيبتي إنت مش لقيطة، أنا هحكيلك كل الحكاية من أول ما صلاح أخويا لقاك في العربية بتاع أبوك الحقيقي لحد ما بقيتِ دكتورة قد الدنيا.. و إنت اللي هتحكمي بنفسك علينا إن كنا غلطانين ولا لأ..!!

أسندت "سناء" رأس "سارة" إلى صدرها، وجعلت تقص عليها قصتها من البداية حتى النهاية.

(١٥)

مع بدايات الصباح، ومع أول شعاع ترسله الشمس إلى الأرض، هبت "سارة" من سريرها تستقبل يومًا جديدًا أحست فيه لأول مرة أنها غريبة عن البيت، شعرت بالخجل والأسف عندما تذكرت ثورتها على الرجل الذي أحسن إليها، ومنحها وده وعطفه وحنانه من غير أن يكون مجبرًا على ذلك، بل إنه قد ألزم نفسه ما لا يلزم، وحرم نفسه من الزواج حتى لا يؤثر زواجه على تربيتها .

قرعت برفق باب حجرته تستأذنه في الدخول، قام إليها في حنان كأنما لم يسمع منها كلمة تؤذي مشاعره، أو تجرح إحساسه.

قالت سارة بصوت رقيق كأنما هي بلبل يشدو على فنن:

. السلام عليك يا ..يا دكتور .

. وعليك السلام يا "سارة" ، تعالي اجلسي .

. جيت علشان أعتذر لحضرتك عن اللي حصل مني امبارح.

. لا.. أبدًا يا "سارة" ما فيش حاجة، أنا كنت متوقع إن ثورتك هتكون أشد من كدا، لكن الحمد لله إنك رجعت لطبيعتك.

. أعتقد إن قعادي معاكم في البيت بعد ما عرفت الحقيقة هيكون صعب شوية.

. وليه يا سارة ؟

. لأني بقيت غريبة عنك يا دكتور .

. وايه الجديد في كدا ؟

. امبارح كنت بنتك، ودي الوقت الأمور اتغيرت وأصبحت غريبة عنكم على الأقل بيني وبين نفسي.

.و انت ناوية تعملي إيه ؟

.هروح لأهلي، وأعيش في بيتي الأصلي .

.زي ما تحبي ، ويا ترى هتروحي لوحدك ؟

.طبعًا لأ ..!!

أنا عاوزاك تكمل جميلك معايا وتقف جنبي لحد ما أستلم أرضي وبيتي.

.ونويت تسافري امتى ؟

.حالًا .. حضرتك عندك مانع ؟!

. لا.. ما عنديش أي مانع، هأتصل بالمحامي علشان يجهز لنا الأوراق اللازمة، و انت جهّزي نفسك وشنطك..!!

.حضرتك لسّه زعلان مني ؟!!

.إيه اللي خلّاك تقولي كدا ؟

.شايفاك بتطاوعني في كل حاجة كإنك عاوز تخلص مني.

. يا سبحان الله ..!! أنا احترت في أمرك يا سارة، إنت عاوزه تقعدي ولا عاوزة تمشي ؟

.عاوزه أمشي .. بسّ كنت منتظرة إنك تمسك فيّ وتمنعني.

.أرجوك يا سارة كفاية اللي بيا، ماتزوديش همي..

استدار صلاح وأعطاها ظهره ليخفي دمعة ذرفتها عيناه، وقال وهو يغالب أحزانه:

. إنت فاكرة إنك لما تسيبي البيت هكون مبسوط؟ لا يا سارة ..الحياة كلها مش هيبقى لها طعم من غيرك .. إنت ما تعرفيش إنت إيه بالنسبة لي؟! إنت النور اللي بينور حياتي، و إنت الأمل اللي كنت عايش عشانه..!!

.تعرف إن معرفتي بالحقيقة فسّرت لي حاجات كتيرة كانت محيّر اني؟!!

.قصدك ايه ؟

.كنت بستغرب من أب حنيّن زيّك إزّاي ما يحضنش بنته الوحيدة، ولا يبوسها، وساعات كتير كنت أبقى مشتاقة لحضنك الدافي، وأشوف في عنيك شوقك للحضن ده لكني لما أجري عليك ألاقيك تدّيني ضهرك، وتنادي على عمتي "سناء"، تييجي عمتي بسرعة وتاخدني في حضنها علشان تعوضني عن حنانك بحنانها، كنت فاكرة دا قسوة منك، لكن بعد ما عرفت الحقيقة عذرتك، و اتأكدت أنك أعظم راجل في الدنيا لأنك قدرت تتحكم في عواطفك وتحافظ على الأمانة اللي عندك.

والمرة الوحيدة التي ضمتني فيها لصدرك حسّيت إنك بتطيب خاطري، بصّيت لك شوفت في وشك إحساس بالخجل كأنك عملت ذنب كبير، يومها غضبت منك، لكني النهارده بشكرك على كل حاجة حلوة عملتها معايا، كنت ليّ نعم الأب، ونعم المربي، ونعم الصديق، علمتني حاجات ما كنتش أقدر أتعلمها لو كنت عايشة مع أبويا الحقيقي.

. ماتقوليش كدا يا سارة، إنت وشك كان وش الخير عليّ، من ساعة ما أخدتك والخير جاني من كل ناحية، اشتغلت في الجامعة، وحصلت على الماجستير والدكتوراه في فترة قصيرة، وجاني شغل خارجي، كإنك كنت مفتاح الرزق..!!

.أنا عندي سؤال محرج شوية ممكن أسأله ؟

.اتفضلي يا سارة، قولي اللي نفسك فيه.

.ليه ما اتجوّزتش لحد دي الوقت ؟

.تصدقيني لو قلت لك؟

.طبعًا أصدقك .. أنا ما اتعوّدتش أسمع منك إلا كل صدق.

. أولاً ما لقيتش الصفات اللي في خيالي عن زوجة المستقبل في واحدة من اللي اتقدمت لهم ، ثانياً كنت خايف أتجوز أي واحدة فتغيرني من ناحيتك.

. معقولة كنت خايف عليّ من أي زوجة رغم إني مش بنتك الحقيقية؟

. طبعًا يا سارة أنا من ساعة ما أخدتك و أنا عاهدت نفسي إن ما فيش حاجة في الدنيا ممكن تغيّرني من ناحيتك..!

. وحكاية الصفات اللي في خيالك عن زوجة المستقبل ما فيش فيها شوية تنازل؟ حضرتك عارف إن ما فيش حد كامل في الصفات، وما فيش واحدة بتجمع كل الصفات الحلوة لازم يبقى فيها الحلو والوحش، ودي طبيعة الإنسان اللي خلقه ربنا.

. معاك حق يا سارة .. أنا عارف إن ما فيش شخصية مثالية زي اللي خيالنا بيرسمها لنا، لكن على الأقل يكون فيها نسبة كبيرة من الصفات اللي في خيالي.

. ولسه ما لقيتش الشخصية دي إلى الآن ؟

. للأسف لقيتها.

. بتقول للأسف؟

. أيوه .. لأنها جيت متأخرة، لو كانت ظهرت لي من عشر سنين على الأقل ما كنتش اترددت لحظة في الارتباط بها، لكن للأسف جيت والشعر الأبيض بيزحف في راسي.

. حبيتها بجد؟

. حب فوق الوصف.

. صارحتها بحبك ؟

. لا .. ما اقدرتش أصارحها.

.ليه ما صارحتهاش؟ هي الواحدة تعرف منين إن الشخص دا مهتم بيها إذا ما صارحهاش بحبه؟!

.لأني كنت عامل زي أبو فراس الحمداني لما قال:

بلى أنا مشتاق وعندي لوعة ولكن مثلي لا يذاع له سرُّ

إذا الليل أضواني بسطت يد الهوى وأذللت دمعاً من خلائقه الكبرُ

تكاد تضيء النار بين جوانحي إذا هي أذكتها الصبابة والفكرُ}

.الله على الكلمات الجميلة والاختيار الأجمل كأن أبو فراس كان بيتكلم بلسانك.. يا بختها يا دكتور اللي تشغل بالك وتخليك تقع في غرامها بالشكل دا...!!

.شكلك بتجاملييني يا سارة.

. لا والله يادكتور دي الحقيقة.. تعرف إنك لسه فتى أحلام كتير من البنات اللي في سني؟!!

.معقولة يا سارة؟!! أنا خلاص راحت عليّ وفاتني القطر من زمان..!!

. مش مصدقني..؟! أقرب مثال على كدا زميلتي سلمى هتتجنن عليك، وبتقول إنك فارس أحلامها، وإنك راجل من الزمن الجميل صعب إن تلاقي واحد زيك في الزمان ده، وأنا كمان نهار ما أفكر أتجوز هتكون صفاتك هي المعيار اللي أوزن بيه الراجل اللي يتقدم لي، فاكر حسام؟ كنت شايفاه ولا حاجة لما قارنته بحضرتك.

شرد صلاح بذهنه قليلا وقال في نفسه :

. "سلمى" بتحبني ؟ صحيح دنيا عجيبة، احنا عملنا زي الشاعر اللي بيقول:

علَّقْتُها عَرَضًا وعَلَّقَتْ رَجُلاً غَيْرِي وعَلَّقَ أُخْرَى غَيْرَها الرجُلُ

سلمى بتحبني و أنا بحب سارة وسارة يا عالم مين هيشغل قلبها ..!!

نظرت سارة إلى الدكتور "صلاح" فوجدته غارقًا في عالم آخر، فوجهت إليه الحديث بصوت مرتفع كأنما توقظه من حلم جميل ، أو من نوم ثقيل :

. دكتور .. اللي واخد عقلك ؟ احنا اتأخرنا، اتصل بالمحامي على بال ما أجهز الشنط.

قام الدكتور و اتصل بالمحامي وطلب منه إحضار المستندات والأوراق اللازمة ، ونهض ليجهز نفسه للسفر، دخلت "سارة" على "سناء" وطلبت منها أن تجهز نفسها هي الأخرى لهذا السفر، قالت "سناء":

. يا سارة يا حبيبتي .. الدكتور "صلاح" والمحامي هيكونوا معاك لحد ما تستلمي حقك الشرعي، و أنا هافضل هنا لغاية ما ييجوا وأطمن منهم عليك.

. لكن أنا هاخدك معايا.. إنت عاوز اني أروح أعيش لوحدي في وسط ناس ما أعرفش عنهم حاجة؟!!

. يا سارة يا حبيبتي .. الناس دول أهلك عيلتك لحمك ودمك، إن كانت قلوبهم قاسية في وقت من الأوقات مش هيفضلوا قاسيين عليك طول الوقت، والضفر ما يطلعش من اللحم انت رضه بنتهم وهم عرفوا غلطهم ، وطلبوا إنك تعيشي في وسطهم أكتر من مرة.

. و إنت شوفت أم تسيب بنتها تعيش لوحدها بعيد عنها؟!

."سارة" بتقولي ايه.. ؟!!

. بقول الحقيقة يا ماما، أنت أمي الحقيقية، صحيح الأم اللي ولدت ماتت لكن من رحمة ربنا علي ولطفه بي بعت لي أم كلها عطف وحنان ادّيتني عمرها كله وحنانها كله من غير ما تستنى مقابل، خلّيني أردّ لك جزء من جميلك عليّ وأخدمك في بيتي زي ما خدمتيني في بيتك..!

. سارة أنا ما عملتش اللي عملته عشان آخد جزاؤه في الدنيا، أنا عملته عشان ربنا يجازيني عليه في الآخرة.

. وتفتكري إني خدمتي لك هتنقص من أجرك عند ربنا..؟!

خدمتي لك حقك عليّ وشكل من أشكال الشكر والرسول قال: "من لم يشكر الناس لم يشكر الله عزوجل" .

. أنت عارفة يا سارة إن الدكتور صلاح أبحاثه كتير، وبيتعب في شغله ، ومحتاج للي يخدمه عشان يتفرغ لأعماله و أبحاثه.

. يا ماما .. الدكتور يقدر يدبر حاله، دا بيطبخ أحسن مني ومنك، وأستاذ في ترتيب المنزل وتنظيفه، أنا شوفته بنفسي بيعمل كل حاجة في بيت شيخه.

. يا سارة هيكون شغل البيت جنب شغله حمل ثقيل عليه.

. أنا بصراحة أنا عاوزاه يفكر تفكير جاد في الجواز.

. إزّاي يا سارة ؟

. طول ما انت بتعملي له اللقمة وتغسلي له هدومه وبتسهري على راحته مش هيفكر في الجواز، لما يحس إنه لوحده ويتعب من شغل البيت هيضطر يفكر في واحده تملا عليه الفراغ اللي انت سيبتيه.

. تصدقي إن الفكرة دي ما خطرتش على بالي قبل كدا .. يبقى أنا اللي كنت السبب في قلة جوازه لحد دي الوقت؟!

. طبعًا إنت كنت سبب من شوية أسباب.

.تقصدي إيه يا سارة ؟

. أقصد إنك مش السبب الوحيد، لكن فيه أسباب تانية، منها مثلًا انشغاله بالعلم، ومنها رغبته في التفرغ لتربيتي، ومنها أنه ما لقاش البنت اللي تقنع عقله وتسيطر على قلبه، لكنه أخيرًا لقاها.

.إنت عرفت يا سارة إنه لقاها؟

.أيوه عرفت.

.إزاي عرفت ؟

.منه شخصياً .

.وقال لك هي مين؟

.لأ.. ما قالش هي مين، لكنه قال لي إنه لقاها بعد ما فاته قطر العمر، بس أنا هافضل أدور وراه لحد ما أعرف هي مين اللي قدرت تستولى على قلبه.

.وهو الموضوع دا يهمك ؟

. طبعاً يهمني جداً، مش دا بابا اللي رباني وحرم نفسه من متع الدنيا علشاني ..أقل حق له عليّ أن أهتم له، و أنشغل به لغاية ما يستقر في حياته.

.ربنا يبارك فيك يا سارة، أنا هآخد بنصيحتك، و أفضل جنبك لحد ما يجيلك ابن الحلال اللي يستاهلك وأطمن عليك، واهي فرصة لصلاح إنه يفكر بجد في الجواز لأني مش هعيش له العمر كله.

.ربنا ما يحرمنا منك يا ماما سناء ويعطيك الصحة والعافية.

أعدت كل واحدة منهما حقيبتها، و انتظر الجميع وصول المحامي، وما إن وصل حتى هبوا جميعاً لاستقباله، ركبت "سناء" في سيارة "سارة" تلك السيارة التي كان الدكتور صلاح قد اشتراها لها عقب التحاقها بكلية الطب كهدية منه و مكافأة لها، وركب الدكتور والمحامي في سيارة الدكتور "صلاح"، و اتجه الجميع إلى شمال الدلتا حيث يقيم أهل سارة في محافظة البحيرة .

(١٦)

لسارة في هذه البلدة الريفية الهادئة عمّان ، العم الأكبر يدعى "زاهر" وهو رجل في الستين من عمره، ذو شارب عريض، وبنية ضخمة ، وصوت أجش ، قوي الشخصية يؤثر فيمن حوله، ويسيطر على من يجالسه بقوة منطقه وحسن حديثه، كان لديه من الأولاد فتاتان إحداهما خرساء، وأربعة من الذكور اثنان منهم يعقان والدهما، ولا يستجيبان لمطالبه، ولا يذعنان لأوامره، يسهران مع رفاق السوء يلعبان الميسر وذات ليلة حدثت مشاجرة بينهما وبين مجموعة من رفاق السوء انتهت المشاجرة بمقتل واحد من هذين الولدين العاقين، وهذا الحدث كان له أكبر الأثر في هزيمة العم "زاهر" وإحساسه بالانكسار، وكان بينه وبين نفسه يقول هذا عقاب ربي يجازيني على ما فعلته مع ابنة أخي، أما زوجته فسيدة ريفية طيبة لا ترضى عن كثير من تصرفات زوجها، وكثيرا ما صدته ووقفت ضده في أمر "سارة" ، كيف ينكر نسبها ؟! وكيف يتركها لشخص غريب يربيها وأعمامها ما زالوا على قيد الحياة ؟ولكن دون جدوى.

والعم الثاني يدعى "رشاد" وهو أصغر من "زاهر" بعامين ، وهو رجل ضعيف البنية ، ضعيف الحيلة والشخصية، مغلوب على أمره يسير وراء أخيه، وينفذ كل ما يأمره به خوفاً من بطشه وسلاطة لسانه، وزوجته امرأة جشعة لا تتورع عن أكل الحرام، ولا يملأ عينها إلا التراب، كانت هي الأخرى تدفعه لأن ينكر نسب سارة حتى يحصل على جزء من حقها في ميراث أبيها، وقد رزقهما الله بثلاثة من الأولاد الذكور أكبرهم في السادسة والعشرين من عمره أنهى دراسته الجامعية وحصل على ليسانس الحقوق، والثاني حصل

على دبلوم الصنايع وقد تعرف إلى أصدقاء السوء الذين جعلوه مدمناً للبانجو، أما الثالث فهو شاب في الثامنة عشرة من عمره وهو معاق ذهنيًّا .

وهاهي المحكمة قد حكمت لسارة بصحة نسبها، وباستلام حقها، وظل هذا الحق تحت تصرف الدكتور "صلاح" الذي حافظ عليه بكل ما أوتي من قوة، حتى جاء اليوم الموعود الذي تتسلم فيه سارة حقها الشرعي .

لم يجد عماها بد من استقبالها خير استقبال ، لاسيما وأن كل واحد منهما يطمع في أن يزوج "سارة" لابن من أبنائه، ومن ثم تصبح الثروة من حقه بطريق آخر.

أقيمت الأفراح في القرية ، وذبحت الذبائح ، ودعي القاصي والداني إلى الولائم ، وأصبح الناس في القرية يتعجبون من أحوال هذين الرجلين اللذين أنكرا بالأمس علاقتهما بسارة ، وعندما تنتصر سارة عليهما بفضل الله ثم بفضل جهود الدكتور "صلاح" يتحول الرجلان إلى حملين وديعين، يحيطان بسارة ويتمسحان بها، ويتفاخران بأن ابنة أخيهما قد أصبحت طبيبة وستكون معيدة في كلية الطب.

استقبل أهل سارة الضيوف أفضل استقبال، ورحبوا بهم أعظم ترحيب، وشكروا الدكتور صلاح الذي ربى سارة فأحسن تربيتها وحفظ الأمانة وأداها على خير وجه .

في اليوم التالي مرت "سارة على كل أملاكها بصحبة الدكتور صلاح والمحامي وبصحبة عميها وأولاد عميها، حتى تعرفت على حدود أملاكها وعلى جيرانها في الحقول وجيرانها في المسكن .

نظرت سارة إلى الدكتور "صلاح" وقالت له :

.شفت يا دكتور صلاح بلدي ؟

.أيوه .. شوفتها أكتر من مرة يا سارة.

.و إيه رأيك فيها ؟

.دي الوقت ولا قبل كدا ؟

.وهي تختلف دي الوقت عن الأول ؟

. طبعًا يا دكتورة، قبل كدا ما كانش لها معنى، كانت في نظري كوم تراب مليان بالتعابين، دي الوقت اتغير فيها كل شيء، من ساعة ما خطيتي فيها برجلك اتحولت لجّنة خضرة ، ولأول مرة بانزلها وأسمع صوت العصافير وأشم فيها الهوا الجميل كأن كل حاجة هنا فرحانة بوجودك.

ابتسمت سارة واحمرّ وجهها خجلاً وقالت بصوت رقيق كأنها تهمس إليه :

. بيتهيألي إنك أصبحت شاعر، الظاهر إن زميلك الشاعر أثر عليك، ولّا تكون قصة الحب اللي إنت بتمرّبها مأثرة عليك وغيّرتك يا دكتور.

صمت الدكتور وشرد بذهنه قليلًا، واصل الجميع السير حتى وصلوا إلى بيت "سارة"، هنالك طلب الدكتور من سارة أن تسمح له بالمسير والعودة إلى القاهرة هو والمحامي لأن وراءهما أعمال كثيرة، فقالت له سارة وهي تنظر إليه باستعطاف :

.هاتسيبني هنا لوحدي ؟

قال الدكتور :

. إنت دي الوقت بقيت وسط أهلك يا سارة، ما شوفتيش الفرحة اللي في عنيهم من ساعة ما جيت البلد؟!

.صحيح .. بس أنا خايفة .

. خوفك دا أمر طبيعي لأنك أول مرة تسيبي البيت اللي اتربيت فيه وتروحي لبيت ما اتعودتيش عليه .. لكن يوم بعد يوم هاتاخدي على المكان وتحسي بالألفة.

. أنا طلبت من ماما "سناء" إن تستنى هنا معايا.

. إزّاي ؟

. مادمت إنت مش عاوز تقعد هنا هتكون عمتي جنبي لحد ما أتعوّد على المكان وعلى الناس اللي هنا، ولّا عاوزني أفضل هنا لوحدي؟!!

. لكن "سناء" أختي ما تعودتشي تكون بعيدة عني.

. أنا طلبت منها تقعد معايا وهي موافقة، أرجوك ماتحرمنيش من الأمنية دي.

. زي ما تحبّي يا دكتورة سارة أنا ما أقدرش أرفض لك طلب.

. و أنا كنت واثقة في كرمك وعطفك وحنانك.

. بإذنك يا أميرتي الجميلة.

. دكتور صلاح ..

. نعم يا سارة ..

. أشكرك على كل اللي عملته علشاني، وآسفة على كل حرج سببتهولك..!!

. أستودعك الله يا دكتورة "سارة" .

. أستودعك الله يا دكتور صلاح ..هاستنى رجوعك .. خد بالك من نفسك واوعى تهمل صحتك .. ونام بدري علشان السهر مضر للصحة..!!

ابتسم صلاح ابتسامة رقيقة، وودّعها بنظرة طويلة، غاب خلالها عن الوجود، تعلقت عيناه بعينيها الساحرتين كأنما لم يعد يرى في الوجود سواها، أو كأنما يبث في هذه النظرة شكواه وأشواقه، وهموم نفسه التواقة، لم يفق من سكرته إلا على صوت المحامي يناديه مرة بعد مرة:

. ياللا يا دكتور ..احنا اتأخّرنا .

ركب "صلاح" سيارته وركب المحامي معه وانطلقا نحو القاهرة تلك المدينة الصاخبة التي يختلط فيها صوت الحياة الروحية البريئة الطاهرة، وصوت الرغبات الجسدية المتوحشة الآسنة، إنها في الشرق كباريس في الغرب كلاهما تعرفان بمدينة الجن والملائكة.

(١٧)

خفق قلب "سارة" خفقة جديدة لم يخفق مثلها من قبل عندما تعلقت عينا الدكتور "صلاح" بعينيها ساعة الوداع ،كأنما أرسل إليها عبر هذه النظرة الطويلة رسالة من نوع خاص، حاولت أن تفك شفراتها بينها وبين نفسها، لكنها كانت تخشى أن تصل إلى استنتاج بعيد عن الحقيقة، وتحذر من الوقوع في أسر الأوهام الكاذبة، آثرت أن تطوي هذه الرسالة وتخفيها في زوايا عقلها حتى يتراءى لها شاهد يؤكد لها صدق استنتاجها.

مرت الأيام تتبعها الشهور، والإحساس الوليد في قلب "سارة" يكبر يومًا بعد يوم، كانت تشغل نهارها بالعمل المتواصل، لكن في سكون الليل يطير النوم عن عيني صاحب القلب الحائر والبال المشغول، ويظل الفكر حائراً يبحث عن الأمان، فلا يجد له مرسى ولا شطآن، هكذا وجدت "سارة" نفسها تتخبط في جدران الحيرة، تريد أن تجد تفسيراً لما يتحرك في صدرها، وما يشغل عقلها من وساوسَ وظنون.

وجدت نفسها توقظ "سناء" في وقت متأخر من الليل لتسألها عن أشياء لم تكن لتخطر ببالها قبل هذه الليلة، قالت وهي شاردة في عالم جديد:

.عمتي "سناء" ..عمتي "سناء"..!

هبت "سناء" من نومها مذعورة، وقالت في قلق:

.ما لك يا "سارة" ؟

. ما تخافيش، أنا كويسة بس مش عارفة أنام .. عاوزه أتكلم معك في حاجة كدا.

.بكره يا "سارة"، نتكلم و ابقى اسأليني عن أي حاجة بس سيبيني أنام دي الوقت.

.لا .. أنا عاوزه أتكلم معاك دي الوقت مش هاستنى لبكره.

. أنا نعبانة يا "سارة" .. خلّي الكلام دا للصبح .. كلها تلات أو أربع ساعات والنهاريطلع و ابقى فايقة لك.

. لسه باقي على الفجر ساعتين، قومي نتكلم شوية ونصلي الفجر سوا وبعدين ننام براحتنا.

. عاوزه ايه يا عنيدة ؟ لو ما كنتش عارفة الحقيقة كنت قلت إنك بنته.

.تقصدي مين يا عمتي ؟

. أقصد أخويا "صلاح" مع إنك مش بنته لكنك أخدت كل طباعه لما كانت حاجة تشغله ما يهداش ولا ينام إلا ما يعرف أصل الحاجة دي ويفك لغزها ويعرف عنها كل حاجة.

. وأنا كمان فيه حاجة شغلاني ومش عارفة أنام قبل ما أعرف حقيقتها، وألاقي لها تفسيرواضح يقنعني.

.و إيه الحاجة اللي شاغلاك يا دكتورة ؟ يا ترى قصة حب جديدة ؟ ولّا فكرة في خيالك عاوزه تنفذيها في الو اقع ؟!

.بتقولي حب ؟! ليه لأ ؟!

.إنت مش متأكدة من الحاجة اللي شاغلاك؟

.شعور جديد، وإحساس غريب، بحسّ بيه لأول مرة.

.بتحسّي بإيه يا حبيبتي ؟

. حاسّة بدقات سريعة وز ايدة في قلبي، وإحساس يخلّيني متلخبطة مش عارفة أفرح بيه وقوله للناس كلها، ولا أخبّيه وأداريه لأني مكسوفة منه.

.من امتى و انت بتحسي بكدا؟

. من عصر اليوم اللي سافر فيه الدكتور "صلاح"، حسّيت بفرحة جوا ية كإن امتلكت الدنيا كلها، لكني في نفس الوقت حسّيت بخوف وخجلت من نفسي.

. شكلك داخلة على حب جديد يا سارة .. هي دي علاماته ..!!

قالت سارة وقد احمروجهها من الخجل :

. بتقولي إيه يا عمتي ؟

. بقول الحقيقة يا سارة، احكي لي بالتفصيل، أنا فاكرة بعد ما سافر الدكتور صلاح كان معانا الأستاذ "مجدي" ابن عمك "رشاد"، وكان معنا كمان " عادل" ابن عمك" "زاهر" مين فيهم بالظبط اللي قلبك مال له؟

. لا يا عمتي .. قلبي ما مالش لحد فيهم دا أنا ما حسّيتش بوجودهم أصلاً.

. يا سارة كوني صريحة مع عمتك اللي ربتك.

. والله يا عمتي أنا ما حسّيتش بحاجة ناحيتهم، إنت عارفة ليه ما حسيتش بحاجة ناحيتهم؟

. لِيه يا "سارة" ؟

. لأن كل واحد فيهم مالوش شخصية، ما يعرفوش معنى الرجولة الحقيقية، أنا عارفة أنهم و اقفين جنبي بأوامر من أعمامي كل واحد فيهم عاوز يلفت نظري له علشان يرتبط بي ويضم ثروتي لثروة أبوه، اللي زي دول يا عمتي ما يملوش عيني.

أنا عاوزه زوج يكون فيه نفس مواصفات الدكتور "صلاح" رجل يعرف معنى الرجولة، ويكون حنين وكريم ومثقف ومؤمن إيمان حقيقي..!!

.كل بنت يا سارة بتشوف في أبوها أو اللي يكون مكان أبوها الشخصية المثالية لأنها عاشرته عشرة طويلة واتعوّدت عليه، فبتوزن الشاب اللي يتقدم لها بموازين اللي اتعودت عليه.

.سيبك من الحاجات دي وجاوبيني بصراحة.

.أجاوبك على إيه يا سارة ؟

. أنا متأكدة إن الدكتور "صلاح" لقى البنت اللي قلبه دقّ لها، كلميني عن صفاتها وأخلاقها، كلميني عن جمالها وعن كل شيء فيها.

.إنت فاكرة إني أعرف حاجة عنها يا سارة ؟

. أنا مش فاكرة .. لأ أنا متأكدة؛ لأن الدكتور عمره ما خبّى عليك حاجة، وخصوصًا أمر مهم زي دا.

. انسي الموضوع دا يا سارة ، وخلّينا نتكلم في حاجة تانية يا تسبيني أنام.

. بالله عليك يا عمتي .. عرّفيني كل حاجة عاوزه أعرف كل شيء عن البنت اللي بابا حبّها.

.عاوزه الحقيقة ؟

.أيوه ومش عاوزه غير الحقيقة.

.توعديني بإنك مش هتضايقي أو تغضبي ؟

.أوعدك يا عمتي ولكن بالله عليك ..قولي لي هي مين؟

.أنت يا "سارة" ..

.أنا ؟! أنا البنت اللي حبّها الدكتور "صلاح" ؟! لا .. أنت بتخدعيني .

.لا.. هي الحقيقة اللي أخفيناها عليك من سنين .

.أنا .. أنا مش مصدقة اللي بتقوليه .. إزّاي؟!

. أول ما خلّصت الثانوية العامة، بدأ يشعر بحبك بيجري في دمه، ويحرّك قلبه ويملك كل مشاعره، حاول يخبي عواطفه، ويكتم مشاعره ناحيتك لحد ما أنا حسّيت بيه ولما فضفض لي عاتبته عتاب شديد وقاسي، فقال لي: إن مش بإيده، وكان دايمًا يهرب منك علشان ما يظهرش عليه حبه اللي مختلف عن الحب الأبوي.

فاكرة لما ساب لك رسالة يعرفك فيها إنه مسافر للخارج و إنت شوفتيه متنكر عند شيخه وجريت وراه ؟!

. أيوه فاكرة.

. كان هربان منك .. فَضَّل إنه يكتم حبه في قلبه ويهرب بعيد عشان ما تلاحظيش عليه حاجة وخصوصًا إنك ما كنتيش تعرفي إنه مش أبوك.

. معقول اللي بتقوليه .. ؟ أنا مش مصدقة اللي باسمعه.

. هي دي الحقيقة يا سارة ، طلبت منه إن يكتم حبه في قلبه، وأعتقد إني كنت قاسية عليه في الطلب ده.

استرجعت "سارة" شريط الذكريات ، وتوقفت عند كل مشهد يظهر فيه الدكتور صلاح ، وجعلت تحلل حركاته وسكناته ولفتاته ونظراته وهمساته، حتى قالت لنفسها :

. كان لازم أكتشف الحب دا لوحدي من غير ما أسأل حد، أنا قريته في عينيه أكتر من مرة ، وحسّيته في دقات قلبه، وشوفته في هروبه مني و ابتعاده عني كل ما قرّبت منه، كأنه كان خايف إن أكشف سره، وأعرف اللي بيخبّيه عني .. أيوه .. أنا شوفت في عنيه يوم ما ودعني بنظرة طويلة كل معاني الحب والشوق والحنين، كأنه كان خايف ما يشوفنيش تاني، أو كأن عينه كانت بتحكي لعيني قصة حبه وقسوة المحبوب عليه.

ومع دا كله كنت بكدّب ظني وأشك في إحساسي .. ما كانش يخطر على بالي إن العاطفة الأبوية اللي غمرني بها و أنا طفلة تتحوّل لحب من نوع تاني مختلف يسيطر على كل إحساسه ويعذّبه العذاب ده كله..!!

ياااه .. كنت أنانية لدرجة إنه كان بيتعذّب قدامي و أنا مش حاسّة به...!!

لأ .. مش هاسيب أحلامه تضيع، ويفضل يحب من غير أمل .. أنا مش هسيبه يضيع من إيدي .. هو دا الفارس اللي كنت مستنياه من زمان، كان جنبي وما كنتش شايفاه.. معقولة الواحد ممكن يقابل شخص في نبله وشهامته ورجولته وعلمه ورقته..؟!!

أنا حاسّة إن حبه بيجري في دمي .. و إنه الروح اللي لولاها لكنت جثة هامدة.. من ساعة ما مشي و أنا تايهة مش عارفة إن كنت صاحية ولا نايمة..مش ممكن أتصور حياتي من غيره ..!!

أنا هاروح له، و أقول له : تعال يا حبيبي ، أنا شايلة لك من الحب والأشواق أضعاف اللي إنت شايله.. أنا مش هاهرب منك زي ما هربت مني ، لكني هصارحك بالكلمة اللي خبيتها إنت في قلبك سنين طويلة.. أنا كمان بحبك يا دكتور صلاح .. كلمة ما قولتهاش لحد قبلك، ولا حد تاني في نظري يستاهلها غيرك.

ظلت "سارة" هائمة في وادي السحر، سابحة في عالم وردي من نسج خيالاتها، لم يعدها إلى الحياة الو اقعية إلا صوت "سناء" تصرخ فيها كأنها توقظها من سبات عميق :

.سارة ..سارة ، رحت فين؟ مين اللي واخد عقلك ؟

انتبهت "سارة" والتفتت إلى عمتها، وقالت في براءة :

.إنت بتناديني يا عمتي ؟!

. أيوه بنادي عليك .. الظاهر إنك كنت سرحانة شوية.

. آسفة يا عمتي .. كنت .. عاوزه نروح أنا وإنت القاهرة عشان نبص على الدكتور صلاح لأن بقاله فترة ما بيجيش، وما نعرفش حاجة عنه، كنت عاوزه أطّمّن عليه.

. معاك حق يا "سارة" من بكره يا حبيبتي نسافر له بمشيئة الله عشان نطمئن عليه .

(١٨)

منذ عاد صلاح من محافظة البحيرة ، وهو في شغل دائم وأبحاث مستمرة، أراد أن يستغل فراغه، وإحساسه بعدم المسئولية تجاه الأسرة ولو لحين فيما يحقق آماله الكبيرة وأحلامه العريضة، عاد من جديد إلى مزرعة "الراعي" يشرف على إنتاجها الزراعي، كما عاد إلى حلمه الكبير في مزرعة "الغنيمي" يعينه في تحقيق هذا الحلم شباب أكفاء متحمسون لخدمة وطنهم وأمتهم، بذل الدكتور معهم جهودًا مضنية من أجل أن يغرس فيهم حب الانتماء إلى الوطن، فكانوا يعملون معه في دأب ونشاط لا يدفعهم إلى مزيد من بذل الجهد إلا حب العلم والرغبة في كل جديد دون أن ينتظروا مقابلًا للساعات الإضافية التي كانوا يقضونها معه في العمل والبحث .

ذاع صيت الدكتور في أنحاء أوروبا، وقرر علماء وخبراء وباحثون في مجال الزراعة في بريطانيا أن يلتقوا به ليروا هذا الرجل الأسطورة الذي تخطت أبحاثه العلمية في مجال الزراعة مائتي بحث كلها تحمل أفكارًا جديدة، بالإضافة إلى النتائج المثمرة في استخدام المخصبات العضوية أو الطبيعية في تخصيب التربة، وإنتاج محاصيل تخلو تماماً من الملوثات الكيميائية .

وبالفعل حضر وفد كبير ولفيف من العلماء والدارسين وأساتذة الجامعات والتقوا بالدكتور "صلاح" في مزرعة "الغنيمي"، واستمعوا إليه وهو يشرح لهم بعض نظرياته، ويعرض عليهم نتائج بعض أبحاثه، قرر الوفد بعد انتهاء الجلسة أن يستضيفوا الدكتور "صلاح" في المملكة المتحدة لمنحه درجة الدكتوراه الفخرية، وجائزة علمية في بريطانيا.

سافر الدكتور "صلاح" إلى بريطانيا، وفي الفندق الذي نزل به زاره رجلان غامضان، عرضا عليه أن يشتريا جميع أبحاثه بملايين الدولارات، لأن شركتهما تنوي تنفيذ هذه الأبحاث وتطويرها، لكنه بحسه الأمن، وذكائه الألمعي شعر بوجود رائحة غريبة خلف هذين الرجلين، رفض العرض بحدة، وقام من جلسته كي يصرفهما من مجلسه، خرج الرجلان والشرر يتطاير من عينيهما .

كان يعلم مسبقًا أن دولة ما هي الدولة الوحيدة في الشرق الأوسط التي تخصص من ميزانيتها مبالغ ضخمة لتمويل الأبحاث والدراسات الزراعية، إنها تريد أن تكون أعظم دولة في الإنتاج الزراعي، وإذا تحقق لها ذلك أصبحت أعظم دولة في التجارة والصناعة وغيرها من المجالات التي تعتمد على الزراعة.

في اليوم السابع من ذهابه إلى بريطانيا تم تكريمه في إحدى الجامعات البريطانية، وحصل على جائزة تقديرية، وأخرى تشجيعية لتميزه في مجال الأبحاث الزراعية ، وفي اليوم الثامن غادر بريطانيا متوجهاً إلى القاهرة، ليبدأ رحلة أخرى من البحث والكفاح.

لم يمض شهران على تسلمه الجائزة حتى تعرض لمحاولة اغتيال من قبل مجهولين في القاهرة،كان يقود سيارته متجهًا من بيته إلى المزرعة صباح أحد الأيام ، فوجئ بوجود كلب يعبر الطريق أراد أن يهدئ من سرعة السيارة فإذا المكابح (الفرامل) لا تعمل، شعر بأنه في خطر، وأن هذا الأمر تم بفعل فاعل، رفع قدمه عن البنزين، وترك السيارة تسير بقوة الدفع ، صرف كل همه وتركيزه إلى عجلة القيادة (الدركسيون)، كان الطريق لحسن حظه خاليا أو شبه خالٍ في ذلك الوقت، تمكن من ضبط عجلة القيادة حتى توقفت السيارة وحدها، نزل من سيارته، تنهد تنهيدة طويلة وحمد الله ثم سجد شكراً

لله ، تفحص السيارة فوجد خرطوم الزيت الذي يغذي (فرامل) السيارة مقطوعاً كما كان يتوقع.

تبادرت إلى ذهنه قصص العلماء والباحثين الذين تم اغتيالهم من أمثال الدكتور (مصطفى مشرفة)، والدكتورة (سميرة موسى)، والدكتور (يحيى المشد)، والدكتور (سمير نجيب)، والدكتور (نبيل القليني)، والدكتور (جمال حمدان)، والدكتورة (سلوى حبيب)، والأستاذة (عبير عياش) ... وغيرهم من علماء الأمة العربية والإسلامية.

تعجب .. وقال في نفسه :

. إزاي عدونا يوصل لعلمائنا بالبساطة والسهولة دي؟! يا ترى هم جامدين وأذكيا للدرجة دي؟! ولا في شعوبنا خاينين بيبيعوا دينهم وضميرهم ووطنهم للي يدفع أكتر؟!!

أنا ما اعتقدتش إنهم أقوى مننا؛ لأن حروبهم معانا بتظهر جبنهم وهزيمتهم لما تكون فيه بينا وبينهم مواجهة حقيقية، وحرب أكتوبر ١٩٧٣م أكبر دليل على كدا والمقاومة اللبنانية ٢٠٠٦م كشفت ضعفهم وخيبة أملهم، ومعاركهم في غزة ٢٠٠٨م، ٢٠١٢، المقاومة الفلسطينية إديتهم دروس في الصمود وفن الاستخبارات العسكرية وما قدروش يحققوا غرضهم، وعلشان كدا ييجوا يتمسحوا فينا بكلمة تطبيع العلاقات لأنهم عجزوا عسكرياً عن المواجهة، فيتبعوا سياسة التدجين إنه يشتريك بشوية دولارات، ومن هنا تظهر فئة المنتفعين.

إحنا في الحقيقة أمة قوية ما بتظهرش قوتها إلا في وقت الشدة والأزمات، أما عدونا كيان هش ما يقدرش يصمد .. ليه بنخاف منهم ونعملهم ألف حساب؟ ليه بنطاطي روسنا وهم بيعربدوا وبينتهكوا الحرمات ويقتلوا العلماء ، لحدّ امتى هيفضل الخوف والجبن مالي قلوبنا؟! لو كانت حجتنا إن

فيه بينا وبينهم معاهدة سلام ولازم نحترمها هم عمرهم ما احترموا معاهدة في تاريخهم الطويل، الناس دي ما تعترفش إلا بمنطق القوة، و أنا بتعجب من الأمة العربية والإسلامية وحالة النوم والتخاذل اللي فيها امتى تفوق، هو السلام معناه الذل والاستسلام؟! ولّا معناه الحياة في أمن وكرامة؟!

هل معنى السلام إن الإنسان يتنازل عن مبادئه وقيمه وتضيع هويته إرضاءً للخصم ؟ ولا معناه التمسك بالقيم والمبادئ والمحافظة على الهوية في عزة وكرامة ؟!

أنا عمري ما شغلت عقلي بالسياسة، ولا بادّعي إني أهل للسياسة ولكن فيه حاجات تخليك غصب عنك تسأل لأنها محتاجة شرح وتفسير وتوضيح ..أنا عاوز أصرخ صرخة قوية تملا الأرض كلها ، وتوصل للسما ، نفسي أقول لكل العالم ..في الأرض متسع للجميع، كفاية حروب، كفاية إرهاب وترويع للآمنين، كفاية ظلم وعدوان على الآخرين، كفاية تقطيع للعلاقات وتشتيت للشعوب، ربنا خلقنا لعبادته وحده وخلّانا خلفاء له في الأرض عشان نعمرها مش نخربها، وخلانا شعوب مختلفة في اللسان والألوان عشان نتعارف ونتعاون مش علشان نتقاتل، أظن هو دا المفهوم الصح لمعنى السلام.

لم يستطع "صلاح" أن يواصل السفر إلى المزرعة لأنه شعر بالتعب والإرهاق بعد الحادث الذي تعرض له فعاد إلى بيته مجدداً لكنه وجد باب شقته غير مُغلق تماماً، دخل إلى شقته وهو يسير على أطراف أصابعه بخطوات بطيئة، لكنه وجد كل شيء محطم ومبعثر في كل مكان، أيقن أن المقصود من وراء هذا الهجوم هو سرقة الأبحاث الخاصة به، أسرع إلى حجرة المكتب فوجد الأدراج مفتحة والكتب ممزقة ومبعثرة ، وبعض التحف

التي كان يزين بها مكتبه قد تهشمت، بحث عن بعض الأوراق التي طبعها من بحثه الجديد الذي بدأ فيه منذ أسبوع فلم يجد لها أثراً .

نزل بسرعة إلى الشارع ونادى على أحد الجيران الذين يثق فيهم، وطلب منه أن يذهب إلى قسم الشرطة لتحرير محضر بالسرقة والهجوم من قبل مجهولين على شقته، وأسرع هو نحو شيخه بعد أن اتخذ كل الاحتياطات الأمنية في سيره وتعرجه؛ لأنه كان يخشى أن يكون مراقباً من أحدهم، وصل عند بعض أصدقائه وأخبره الخبر، فهيأ له زياً أزهريًّا، وتنكر في صورة رجل عجوز واستطاع أن يدخل على شيخه دونما يشعر به أحد .

سأله عن أبحاثه التي يحتفظ بها عنده فأخبره بأنها في أمان، سواء كانت ورقية أو الكترونية، لأنه كان يتوقع مثل هذا الهجوم على شقته، فكان ينسخ العمل الذي ينتهي منه على أسطوانة، ويطبع منه نسخة ورقية ثم يحذفه من الجهاز حتى لا يفتح أحدهم الجهاز رغم أنه لا يفتح إلا بكلمة مرور سرية، ومع هذا كان يحذر من عبقرية المهاجم فلم يترك أثراً على الجهاز لأعماله، واحتفظ بها عند شيخه الذي لا يكاد أحد يعرف العلاقة المتينة بينهما .

بعد أن اطمأن الدكتور "صلاح"على صحة شيخه وعلى سلامة الأبحاث والمحفوظات لديه، اتصل هاتفيا بعمدة قريته وطلب منه أن يأتي إلى القاهرة على الفور ومعه سيارة، وأعطاه عنوان الشيخ "طلبة"، طلب "صلاح" من الشيخ "طلبة" أن يسلم الأبحاث للعمدة عندما يأتي، ليحتفظ بها العمدة في بيته الموجود بالقرية، وأوصاه بضرورة كتمان هذا الخبر حتى عن أقرب المقربين إليه .

عاد "صلاح" إلى بيته ليجد رجال المباحث قد طوقوا المكان، وبدءوا في رفع البصمات، أخذت أقوال الدكتور، و أقوال الجيران و أقفل المحضر،

وبدأت التحريات ليعرف رجال المباحث هوية المجرمين الذين سطوا على شقة الدكتور "صلاح"، رأى الدكتور أنه من الضروري إطلاع رجال المباحث على حادث الصباح الذي كان مدبراً له فربما تكون هناك علاقة بين الحادثين ، على الفور انتقل الضابط إلى موقع السيارة وقام بمعاينتها، وحرر محضراً جديداً بهذا الحادث .

كان عليه . وسط هذه الأحداث المثيرة . أن يتصل هاتفياً بشقيقته يطلب حضورها لتقف إلى جواره في تلك المحن التي يتعرض لها، لم تكد "سناء" تستأذن "سارة" في السفر إلى القاهرة لتكون بجانب شقيقها حتى وجدت "سارة" في شوق ولهفة للعودة إلى البيت الذي رتعت فيه وعاشت أجمل أيام طفولتها وصباها، وجدتها متشوقة إلى رؤية الدكتور "صلاح" ذلك الرجل الذي اكتشفت "سارة" أخيراً بأنها تحبه، بل تهيم به ، ولا ترى أحداً جديراً بحبها سواه .

نسي "صلاح" كل آلامه وأحزانه وهمومه، وانطوت فجأة صفحة المحن التي تعرض لها عندما أشرقت "سارة" بنورها الوضاء فأنارت ظلمات حزنه، وأطلت بطلعتها البهية المبهجة على أفقه المظلم، فأبعدت عنه الأسى والكآبة، وأضاءته بمصابيح السعادة.

وقف طويلًا أمام "سارة" يتأمل وجهها المشرق الذي طالما اشتاق إليه، وعينيها اللتين لم تفارقاه في نوم ولا يقظة، يريد أن يضمها إلى صدره، ويشكو إليها بثه وحزنه، وهي الأخرى تنتابها رغبة ملحة في أن ترتمي في أحضانه، وترتاح بين ذراعيه، وتصرخ بملء فمها، أحبك يا صلاح .. أحبك يا صلاح ..!

عقدت الفرحة لسانيهما، وحال الوازع الديني بينهما وبين رغباتهما المشتعلة، وظلت اللغة السائدة بينهما هي لغة العيون وهمسات القلوب،

كأنما كانت عيناهما وقلباهما سبيليهما الوحيدين لأن يقرأ كل منهما ما في خاطر الآخر.

عجباً لك أيها الحب الطاهر البريء ..كم أنت جميل ، وكم أنت ساحر ..!

كم تبهج النفوس الحزينة، وتحيي القلوب الميتة، وتزيد الحياة بهاءً ورونقاً وجمالاً ..!

كم تصنع الآمال ، وتحقق المعجزات ، وتجعل الصعب هيّنا ..!

عجبًا لك أيها الجبار، لم يسلم منك أحد حتى الزاهدون في أطايب الدنيا ومتاعها ..!

ظل العاشقان يهيمان في دنيا الأحلام، ويحلقان في سماوات السعادة الأبدية، حتى أخرجتهما "سناء" مما كانا فيه، و أيقظتهما من الحلم السعيد الذي كان يداعب خياليهما، حينما نادتهما بصوت مرتفع طغى على همسات قلبيهما، وصكَّ مسامعهما المرهفة، فارتعدا كأن زلزالاً حلّ بأرضهما، فلما أفاقا من سكرة النشوى، ووجداها تردد نداءها،ضحكا حتى علا صوت الضحكات على ما عداه من أصوات.

هب الجميع لإعادة ترتيب البيت وتنظيفه، وبعد أن رتبت الشقة، وهيئت على أفضل هيئة طلبت "سناء" من أخيها أن يذهب إلى حجرته ويخلد إلى النوم ساعة أو ساعتين مقدار ما تعد الطعام مع "سارة"، وقبل أن تنتهيا من إعداد الطعام رنّ الهاتف فقام "صلاح" يستقبل المكالمة فإذا بعميد الكلية يهنئه لحصوله على جائزة الدولة التشجيعية، لم يصدق صلاح نفسه من الفرحة، كان في أمس الحاجة إلى هذه الجائزة ليشعر أن وطنه وحكومة بلده تقدره وتشعر بقيمته، إن كل الجوائز التي يمكن أن يحصل عليها في

الخارج مهما كانت عالية وغالية تهون أمام كلمة شكر توجه إليه من المسئولين في وطنه .

كاد يطير من الفرح، توجه إلى "سارة" وقال لها:

. إنه وجهك يا "سارة" الذي أتفاءل به، إن وجهك وجه الخير، ما كنت أحوج إلى جائزة قدر حاجتي إلى هذه الجائزة، إنني أحب بلدي، إنني أحب وطني، لهذا كنت منتظراً كلمة رضا وكلمة شكر من أهلي ورؤسائي لتفتح أمامي كل الأبواب المغلقة، ولتجعلني أستعذب كل ألم يواجهني في مشوار حياتي .

بدأت الاتصالات والتهاني تتوالى على هاتف الدكتور "صلاح" من زملائه وأصدقائه و أقربائه وأهل قريته، وكل من تعرف إليه من قريب أو بعيد، بل إن أناساً لا تربطهم به رابطة أحبوه في الله، وتعاطفوا معه، وهنئوه بالفوز الغالي بهذه الجائزة العزيزة لديه والغالية عنده والتي جاءت متأخرة عن موعدها الطبيعي.

تسلم الدكتور"صلاح" الجائزة في اليوم التالي في موكب مهيب من الجماهير العريضة ، وكوكبة من العلماء والباحثين ، وفريق من الإعلاميين ، واتصل به القائمون على برنامج تليفزيوني شهير، وجعل يطرح أفكاره وطموحاته خلال هذا البرنامج، ونوّه بقضية موقف الصهيونية العالمية من العلماء والمفكرين المسلمين وناشد المسئولين بضرورة حماية العلماء الذين هم الثروة الحقيقية للبلاد، وطالب بتشديد الإجراءات الأمنية ضد الاختراقات الصهيونية، ونادى بضرورة توفير الحماية وتحقيق الأمن للعلماء كي يتفرغوا للعلم ويرفعوا شأن الوطن في كل المجالات والتخصصات .

توالت العقود من دور النشر المختلفة، وانهالت عليه العروض المغرية من الشركات المصرية والعربية والأجنبية وانهمرت عليه كالغيث، وتحقق لصلاح ما لم يكن يتوقعه، وما لم يخطر له على بال.

اكتسب "صلاح" حب الجماهير العريضة التي شاهدت برنامجه، وتوالت العروض من المحطات والقنوات الفضائية لاستضافة هذا البطل الذي أضحى حديث الساعة، وأصبح قدوة لكثير من الشباب المتحمسين.

وذات مساء جلس الدكتور "صلاح" جلسة عائلية في شقته ليتناول العشاء مع شقيقته"سناء" والدكتورة "سارة" ، قالت "سناء" :

. أظنك يا دكتور حققت كل طموحاتك وآمالك.

نظر إليها الدكتور "صلاح" وقال في دهشة :

. وهي الطموحات والآمال لها حد يا "سناء".

. أفهم من كلامك إنك لسّه هتبحث تاني بعد المكانة اللي وصلت لها ؟!

. طبعًا يا "سناء" هافضل أبحث و أبحث لنهاية العمر، ويجي ناس من بعدي يكملوا المسيرة، العلم يا سناء يا أختي مالوش نهاية ، والآمال ما بتخلصشي.

. فعلًا .. "منهومان لا يشبعان: طالب علم، وطالب دنيا.

. تكرهي إن أخوك يكون منهوم في طلب العلم؟!

. لا بس أنا مشفقة عليك .. امتى هتعيش حياتك؟ قطر العمر عمّال يجري من غير ما تشعر، ما آنش الأوان إنك تفكر في الجواز.. أنا بكل صراحة تعبت، ومن حقي أستريح بقى..!!

نظر إليها نظرة إشفاق ورحمة ، وقال في لطف:

. يا حبيبتي يا "سناء" ليه ما قولتيش من زمان؟! لو كنت عرفتيني كنت جبت لك كذا شغالة يعملوا لك شغل البيت و إنت مُعَزّزة مكرّمة..!!

. أنا مش عاوزه حد غريب في بيتي .. أنا عاوزاك تتجوز على سنة الله ورسوله بنت الحلال اللي تملا علينا البيت فرحة وسعادة، وربنا يرزقك منها بالذرية الصالحة تربيها على الأخلاق الطيبة زي ما ربيت سارة.

. وتفتكري إن العمر لسّه فيه بقية إني أتجوز وأخلّف وأربي ؟!! وإذا كان في العمر بقية مين اللي ترضى بواحد في سني؟!

. إنت لسه في شبابك وبلاش النظرة التشاؤمية دي، اللي في سنك لسه ما اتجوزوش.

. يا "سناء" أرجوك ..سيبك من الموضوع ده، لأني خلاص أخدت عهد على نفسي إن مش هاتجوّز إلا اللي ينشرح لها قلبي ..!!

. و إنت لاقيتها يا صلاح.. صارحها بحبك يمكن تو افق.

نظر إلى أخته نظرة غضب كأنه يريد ألا تفضح أمره أمام سارة، وقال :

."سناء" سيبك من الأسطوانة دي، وغيّري الكلام .

. لأ مش هغيّر الكلام إلا إذا إدّيتني وعد بإنك تفكر بجد في الجواز.

شعرت "سارة" بالحرج ، فأرادت أن تستأذنهما في الدخول إلى حجرتها ، لكن "سناء" أمسكت بثيابها، وأصرت أن تظل "سارة" جالسة معها حتى تأخذا عليه عهداً أن يفكر في الزواج بشيء من الجدية، نظر إليهما "صلاح" وقال :

. طالما إنتم مُصِرّين على الموضوع ده فأنا مش هافكّر في الجواز إلا بعد ما سارة تتجوّز وأطّمّن عليها.

التفتت "سناء" إلى "سارة" وقالت لها :

. و إنت إيه رأيك يا سارة في اللي بيقوله الدكتور؟

أجابت "سارة" في حياء شديد :

. أنا مش هافكّر في الجواز إلا إذا لقيت الإنسان اللي ينفتح له قلبي ، ويكون في صفات وأخلاق الدكتور صلاح .. !!

ثم استطردت سارة :

إنت نسيت يا دكتور إنك قلت لي قبل كدا إنك لقيت البنت اللي اتفتح لها قلبك؟!!

. لأ ما نسيتش يا سارة .

. يعني وقتها كنت بتضحك عليّ ؟

. لا والله .

. طيب .. ليه ما بتتقدمش لها بشجاعة، وتصارحها بحبك؟

. خايف إنها تتصدم بالخبر ده ، أو يكون في قلبها حد غيري و أتصدم أنا..!!

. ليه بتتوقع الأسوأ ؟ مش جايز يكون قلبها هي كمان مجروح بحبك وإنها بتتعذّب زيّ ما انت بتتعذّب؟!

. لما أكون قدّامها و أبص في عنيها يروح مني الكلام و أنساه ، وألاقي لساني صبح تقيل ومش قادر أنطق بكلمة، أبص في عنيها ألاقيني دخلت جنينة واسعة فيها السحر كله ما أسمعش فيها غير وشوشة العصافير، وساعات أبص في عنيها ألاقيني بقرأ أجمل قصيدة شعر، ببقى عاوز أصرخ بكل قوتي و أقولها .... لكن الكلام بيخوني ويهرب مني، والاقيني عاجز قدامها حتى عن الحركة، وشوية شوية أجرّ رجلي اللي صبحت زي المشلولة، وأمشي من قدامها من غير ما أقول لها كلمة وداع.

. أعتقد إنها كمان بتقرا في عينيك اللي لسانك مش قادر يقوله، وأعتقد إنها بتموت فيك زي ما إنت بتدوب فيها..!!

. و إنت إيه اللي عرفك شعورها ناحيتي ؟!

. مادمت بتشوف في عنيها الدنيا الصافية الجميلة وبتقرا فيهم قصيدة شعر جميلة أكيد هي بعتاها لك، لأن لسانها هي كمان عاجز عن النطق وساعات لغة العيون بتكون أصدق من لغة اللسان.

. فعلًا يا "سارة" أنا حسّيت من نظراتها بشيء غريب وجديد كأن عنيها بتسألني : أنا؟ تقصدني أنا ..وكأنها مش مصدقة إني بحبها ؟

. من امتى يا دكتور حصل أول حوار للعيون بينك وبينها؟

. إنت هتغيري يا سارة ؟ مش إنت اللي عمّالة تلحّي عليّ إنت وعمتك للجواز؟!

. أيوه صحيح .. بسّ أنا مش هاسيبك إلا ما أعرف أمتى دار حوار العيون ده؟!

. من فترة .. أظن من ست شهور.

. ساعة ما كنت بتودّعها ؟

. إزّاي عرفت ؟

. لأنها قالت لي..

. مين اللي قالت لك ؟

. البنت اللي بتحبها .

. بالله عليك يا سارة .. ما تسخريش مني وتلعبي بي.

. و أنا أقدر أسخر منك ولا ألعب بك؟!! كل الحكاية كنت عاوز أعرفك إن رسالتك وصلت لها وفهمت وبتقولك يا دكتور صلاح هي كمان بتحبك أكتر من حبك لها ، وهي مستنية إشارة منك.

. إنت تقصدي مين يا "سارة" ؟

. أقصد البنت اللي كنت بتهرب منها علشان ما يبانش في عنيك حبك لها فتجرح إحساسها.

."سارة" .

. البنت اللي إنت اتعذبت بسببها كتير، وكانت مش حاسة بك، لكنها شافت في عنيك كل الكلام اللي إنت كتمته في قلبك يوم ما ودعتها، وكتمت هي كمان حبها لك عن كل الناس لحد ما تقابلك تاني، وهي دي الوقت قدامك بشحمها ولحمها بتعترف لك بحبها، وبتتمنى تعيش بقية عمرها في جنتك اللي اتعوّدت عليها، مستنية إشارة منك عشان تجيلك وتقدم لك حياتها وشبابها وتخدمك لآخر عمرها يا أغلى وأعزّ الناس عندها..ما عرفتش قيمتك ولا عرفت إن روحها فيك إلا بعد ما مشيت وسيبتها في بلدها، رغم إن أهلها كانوا حواليها بس دايما كانت حاسة بالغربة من بعدك.

.سارة .. إنت بتقولي إيه؟ أنا مش مصدق اللي بأسمعه.

. هي دي الحقيقة يا دكتور، زي ما تعبت وعانيت في حبك أنا كمان تعبت وسهرت أفكر فيك،كنت خايفة إني ما أشوفكش تاني ..كنت مستنياك ترجع لي وفضلت أعد الأيام والليالي والساعات والدقايق والثو اني، وأدعي ربنا إنه يرجعك لي بالسلامة.

. أنا مش قادرأصدق اللي باسمعه، بحبك يا سارة .. بحبك يا نور عيني ويا أغلى إنسانة في الوجود .. أديني بقولها لك من غير كسوف وبعلنها قدام أختي الوحيدة ، والصبح أعلنها لكل الدنيا عشان الناس تعرف إن ما فيش أحلى ولا أروع من الحب الطاهر البريء المجرد من الأغراض والشهوات.

. و أنا كمان بحبك يا "صلاح" حب فوق الخيال، حب يملى الدنيا فرح وسعادة.

. بكره إن شاء الله هاروح لأهلك أخطبك منهم ، ولو طلبوا عنيا مهر لك مش هاتأخر.

. سلامة عينيك يا دكتور، لو تعرف قيمة نفسك لطلبت أنت المهر من أهلي .

. أنا حاسس إني في حلم جميل خايف أصحى منه.

. أحيانًا بتكون الحقيقة أجمل من الخيال..!!

. الحمد لله .. ربنا إدّاني كل حاجة اتمنيتها في حياتي وأكتر من اللي اتمنيته .. اللهم لك الحمد ولك الشكر حمدا يوافي نعمك، ويكافئ مزيدك، أحمدك بجميع محامدك ما علمت منها ومالم أعلم على جميع نعمك ما علمت منها وما لم أعلم، وعلى كل حال.

(١٩)

في صباح اليوم التالي ركبت "سارة" سيارتها، وذهبت . بعد أن استأذنت الدكتور "صلاح" وشقيقته . إلى أهلها لتمهد الطريق، وتهيئ الظروف لاستقبال العريس المنتظر، كانت تعلم مسبقاً أن أهلها سيرفضون العريس لا لعيب فيه بل للطمع الذي جبلوا عليه، ورغبتهم الملحة في تزويجها لأحد أفراد العائلة، لكن سارة بذكائها استطاعت أن تكتسب جيل الشباب في صفها بعد أن عقدت معهم جلسات متكررة، ولأنهم متعلمون استجابت عقولهم وانقادت لحكمتها، وقف الشباب في وجوه آبائهم، ورفضوا فكرة الزواج التقليدي التي كان يفكر بها الأقدمون.

ما الفائدة في أن يتزوج رجل امرأة أو فتاة لا تكاد تطيقه ؟

كيف تكون الحياة فيما بينهم ؟

إن أسوأ شيء في الحياة الزوجية أن تقوم على فكرة الطمع .. ما أتعسها من حياة وما أشقاها ..!!

بهذه الأسئلة وأمثالها كونت "سارة" جبهة قوية من أبناء عمها ضد أفكار أبويهم .

بل إنها فكرت في أن تجتذب قلوب الجميع ؛ فقررت أمامهم جميعاً أن تتنازل عن عشرة أفدنة من ميراثها لعمها على أن يكون لكل واحد منهما خمسة أفدنة تأليفاً لقلوبهم ، ورغبة في أن تذيب الحواجز بينها وبين أهلها ، ومحاولة لانتزاع الأحقاد من قلوبهم ، حينئذ فرح الجميع لها، وهنئوها بالعريس الذي يحبها لشخصها، من غير أن يطمع في مالها، وكيف يطمع وهو الذي حارب الدنيا من أجلها، وبذل عمره في المحافظة عليها وعلى حقها الشرعي حتى أدى الأمانة على أكمل وجه، و أفضل حال ؟!

أعطاها الدكتور مهلة أسبوع تسوي فيها خلافاتها مع أهلها ، وتمهد الطريق لهذا الزواج الميمون، واتصلت بخالها الذي يعيش في أمريكا وأخذت رأيه في فكرة الزواج من الدكتور "صلاح"، رحب الخال بالفكرة وأخبرها بأنها لن تجد شخصًا في مثل أخلاق ونزاهة هذا الرجل ، وعليها أن تبادر إلى هذا الزواج قبل أن يعكر أحد صفو علاقتها بأعمامها .

في نهاية الأسبوع كان كل أفراد عائلة الدمنهوري في استقبال الدكتور "صلاح"، نزل "صلاح" القرية فوجد الأنوار والزينات في استقباله، لم يكد يصدق ما يرى، توقع أن تكون "سارة" قد زفت إلى أحد أفراد العائلة، ماذا يفعل؟ أيعود من حيث أتى قبل أن تراه "سارة"؟! أم يتجمل بالصبر، ويذهب إليها ليبارك زواجها ويهنئها عليه ؟

رغم أن "سارة" هي التي أعطته الإشارة الخضراء للمجيء إلا أن هذه الأسئلة قد طافت بعقله، ودارت في خَاطره حين رأى الأفراح والطبول في انتظاره ، وجد "صلاح" نفسه مندفعاً نحو بيت "سارة" وهناك وجد العائلة كلها في انتظاره، صافح الجميع، وعندما وجد الفرحة تلمع في عيونهم أحس بأن "سارة" قد بذلت جهوداً مضنية في ترويضهم وكسر شكيمتهم.

اتفق "صلاح" مع أهلها على الطلبات والترتيبات والتجهيزات اللازمة لإتمام الزواج ، ولم يمض أسبوع على هذا الاتفاق حتى أصبحت الدكتورة "سارة" زوجة للدكتور "صلاح"، والتأمت بهذا الزواج جروحهما، وغرد العصفوران الحبيبان في قفصهما الذهبي أعذب الألحان، وأصدق الأناشيد، ورزقا بولدين وبنت جميلة تشبه أمها حتى إن "صلاح" قد سماها على اسم أمها "سارة" ليبدأ من جديد رحلة كفاح أخرى لتربية ابنته الحقيقية "سارة"، وولديه الحبيبين " أحمد"، و"مصطفى"، وعمت الفرحة كل أفراد العائلة،

وعاد "صلاح" إلى عادته الأولى عندما كان يخرج في وقت الأصيل يستنشق النسيم العليل الذي يعبث بالأشجار الناعمة فتتراقص له الأغصان، وتغرد فوق أشجارها الطيور، فتبعث البهجة والانشراح في القلوب وفي الصدور ...!!!

تمت بحمد الله وتوفيقه

المؤلف في سطور

الاسم : إبراهيم عبد العزيز إبراهيم سمري .

الشهرة : إبراهيم عبد العزيز السمري.

من مواليد : قرية شبرا بيل . مركز السنطة . محافظة الغربية . جمهورية مصر العربية .

حاصل على ليسانس آداب قسم اللغة العربية.

حاصل على الماجستير في علم اللغة.

الوظيفة: معلم لغة عربية بالتربية والتعليم.

من أعماله:

١ . أنا العربي (ديوان شعر فصيح) .

٢ . الزهرة الحائرة (ديوان شعر فصيح) .

٣ . اتجاهات النقد الأدبي العربي في القرن العشرين .

٤ . أبو تمام حياته وعصره.

٥ . الإسلام يشرق من الغرب .

٦ . العنصرية بين الشرق والغرب وموقف الإسلام منها.

٧ . فارس الخلفاء عبد الله بن الزبير.

٨ . الساقية (رو اية).

٩ . القرية المسحورة (رو اية).

١٠ . ابتسامات القدر (رو اية).

١١ . سارة (رو اية).

١٢ . جفاف المشاعر (مجموعة قصصية).

١٣ . الدعوة الإسلامية في المرحلة المكية (دروس تربوية للدعاة المعاصرين).

١٤ .الجهاد في الإسلام (مفهومه ، و أنواعه ، وأهدافه، وضوابطه).

١٥ .الإسلام وتنمية المجتمع.

١٦ .حب الوطن من منظور إسلامي.

١٧ .النظام السياسي في الإسلام.

١٨ .معالم الفكر الاقتصادي عند الدكتور محمد شوقي الفنجري.

١٩ .الأزهر ماضيه وحاضره ومستقبله.

٢٠ .الغلو والتطرف الفكري، أسبابه وسبل علاجه.

٢١ . التحديات المعاصرة التي تواجه الدعوة الإسلامية وكيفية مواجهتها.

٢٢ .القدس و آفاق التحدي.

٢٣ .منظومة القيم الإسلامية و أثرها في تأكيد التعايش السلمي.

٢٤ .حقوق ذوي الإعاقة في الإسلام.

للتواصل مع الكاتب

البريد الالكتروني : Eb_semary@yahoo.com

الهاتف المحمول : ٠١٢٢٦٤٨٧١٣٥ /

رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع:

- نشر كل إنتاج إبداعي ذي جودة عالية و أفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة. والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.

لمراسلتنا بشأن نشر الأعمال الأدبية

arabiclibrary2017@gmail.com

صفحتنا على موقع الفيسبوك

facebook.com/arabiclibrary2017